

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٤ - ١٠٩٩ م)

وسمع (الأمبراطور الكسيوس) قبل أن يتمكن من نيل قسطنطين من الراحة ، أقاويل تتحدث عن قرب وصول عدد كبير من جيوش الفرنجة لاعد لها ولاحصر ، وقد خشي من وصولهم ، على أساس معرفته بطباعهم وأخلاقهم التي لا يمكن ضبطها ، وبولعهم في الفوضى وحبهم لعدم الاستقرار ، هذا اذا ما أغفلنا الحديث عن بقية طباع الفرنجة وصفاتهم السيئة ، وما كان ينجم عن ذلك من مشاكل ، فجشعهم - مثلا - للمال ، غالباً ما قادهم الى نقص اتفاقاتهم دون أي مسوغ مهما كانت درجته ، وكان الامبراطور قد سمع هذا عنهم بشكل متواتر ، وقد تأكد جميعه لديه فيما بعد ، ومع هذا حافظ الامبراطور على رباطة جأشه ، وأقدم على اتخاذ كافة الاجراءات ، واستعد لخوض الحرب اذا ما دعت الضرورة لذلك ، وكان ما حدث بالفعل ، اكبر بكثير مما أوحى به مضامين الاشاعات والأقاويل ، أنه لأمر رهيب حقا ، فالغرب كله مع جميع شعوب البرابرة التي عاشت فيما بين شواطئ البحر الادرياتيكي ومضيق جبل طارق انطلقت مهاجرة في كتلة واحدة نحو اسيا ، وقد زحفت عبر أوروبا ، بلدا بلدا ، تحمل معها جميع ما كانت تمتلكه وتقنيته ، ويمكن التعرف الى سبب هذا الجيشان العام في اخبار الأحداث التالية :

فقد قام بين الفرنجة رجل يدعى بطرس ، ويشتهر باسم كوكو بطرس (١) ، وكان قد سافر للتعبد في جوار القبر المقدس ، وبعدما عانى كثيرا من سوء المعاملة على ايدي التركمان والمشاركة الذين كانوا يجوبون البلاد ناهبين لها ولجميع اراضي أسية ، عاد الى موطنه بعد صعوبات جمة ، ولم يسلم بالهزيمة ، لذلك استهدف القيام برحلة ثانية على الطريق نفسه ، لكنه لاحظ انه من الحماسة

بمكان ان يسافر وحيدا - ذلك ان نوازل كبيرة كان يمكن ان تحل به
- لجأ الى ابداع خطة بارعة.

فقد قرر ان يبشر في جميع البلدان اللاتينية ، ويعلن بأن هاتفا
سماويا جاءه يأمره ان يعلن الى جميع امراء فرنسا ، ان عليهم
مغادرة اوطانهم ، والسفر للتعبد في كنيسة القيامة ، وان يبذلوا
نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من ابناء
هاجر ، وانه لمن المدهش ان نرى درجات النجاح التي لاقاها ، حتى
لكأن قلوب الجميع قد دخلت اليها القناعة عن طريق وحي
رباني ، وعلى هذا تجمع الفرنجة جميعا من جميع
الأطراف ، واحدا تلو الآخر ، ومعهم اسلحتهم وخيولهم ، وبقية
معدات الحرب ، وتقاطرت الحشود على الطرقات ، واندفعت بكل
حماس واصرار ، وانضم اليها عدد كبير من اهالي المدن ، حتى
فاقت أعدادهم رمال شواطئ البحار ، ونجوم السماء ، ورفعوا
جميعا سعف النخيل وحملوا الصلبان على عواتقهم .

وكان هناك ايضا عدد كبير من النسوة والأطفال تركوا هم ايضا
ديارهم ، وتدفق الجميع من كافة الجهات تدفق السيول والروافد
على النهر العظيم الذي اتجه نحونا بكامل زخمه وقواه عبر بلاد
داشيا ، وكان قد حدث قبيل وصول هذه الحشود ان تعرضت
الأراضي التي مروا بها الى اجتياح الجراد لها ، وعف هذا الجراد
عن القمح وأتلف الكروم ، وقد أول المفسرون في أيامنا هذه الظاهرة
على أنها تشير الى أن جيوش الفرنجة سبتمنع عن التبخل في
شؤون المسيحيين ، لكنها ستحل سفك الدماء ، وإنزال الأذى بكل
شدة بأبناء اسماعيل البربريين ، الذين هم عبيد لعاقرة
الخمور ، ولعبادة الشيطان ، وهم منغمسون في جميع أنواع
الردائل الجسدية ، وهم وان ختنوا في اجسادهم ، لم يختنوا أبدا
لا في طباعهم ولا في اخلاقهم ، واذا ما اردت معرفة الحقيقة فاعلم ان
أبناء اسماعيل هم عبيد - لابل عبيد ثلاث مرات - لجميع شرور
افرودايت واثامها ، حيث أنهم يعبدون معها عشتار

وعشترت ، ويقدمون في بلادهم تمثال القمر ، ووشن نجم شوبار الذهبى (٣) ، الذي يحظى بمكانة سامية جدا .

ولما كان القمح يتمتع بمكانة عالية ، ويحظى بأهمية خاصة ، ونظرا لكونه في الوقت نفسه أكثر الأطعمة تغذية وفوائد ، فقد اعتبر رمزا يدل على المسيحية ، وفي ضوء هذا ، فسّر العلماء الأتقياء الإشارة الى الخمر والقمح .

هذا مايتعلق بهذه النبوءات ، اما مايتعلق بقضية البرابرة ، فقد تابعوا زحفهم حسبما بينت ، لكن كان هناك شيء غريب في هذا الموضوع ، يمكن للعلاء من الناس ادراكه ، وهو ان الحشود لم تصل جميعا في الموعد نفسه ، كما انها لم تتخذ جميعا الطريق نفسه ، اذ كيف يمكن لها ان تعبر البحر الأدرياتيكي دفعة واحدة ، ذلك ان كل فئة منها وجماعة انطلقت من بلد دون الأخر في اعداد هائلة ؟! ولهذا قامت هذه الحشود برحلتها على شكل مجموعات متفرقة ، مجموعة في البداية تليها مجموعة ثانية ، وهكذا بقية المجموعات ، حتى تمكن الجميع من الوصول ، ثم شرعوا في زحفهم عبر ايبروس (٣) .

وكما سلف بي القول ، فان كل واحد من الجيوش سبقه قطع من الجراد ، الى حد ان كل من شاهد هذه الظاهرة في عدة اماكن ، صار يلاحظ ان قطعان الجراد ، ماهي في زحفها الا علامة على مسير الفرنجة على اثارها ، ولدى عبور الفرنجة لمضايق لومبارديا في مجموعات صغيرة ، استدعى الامبراطور عددا من قادة القوات البيزنطية ، وبعث بهم على رأس عساكرهم الى المنطقة الكائنة حول دير اخيوم وأفلونا ، وزودهم بتعليمات تقضي باستقبال الرحالة الفرنجة بكل لطف ، وان يجلبوا اليهم - من جميع المناطق - كميات كبيرة من المؤن ، وذلك طوال سفرهم ، وان يعتمدوا الى مراقبتهم بشكل دقيق ومسايرتهم حيثما توجهوا ، حتى اذا ماراهم يحاولون الافلات للنهب في المناطق المجاورة منعوهم من

تنفيذ أغراضهم عن طريق المناوشات الخفيفة ، وجرى ارفاق هؤلاء القادة بعدد من المترجمين الذين يفقهون اللغة اللاتينية ، وكان واجبهم الحيلولة دون حدوث مصادمات او مشاكل بين الفرنجة وسكان المناطق المحليين . هذا وبودي ان اقدم هنا رواية اكثر تفصيلا حول هذه المسألة :

وانتشرت اخبار اعمال بطرس التبشيرية ، وعمت كل مكان ، وكان غودفري (٤) على رأس النين باعوا اراضيهم ، واخذ الطريق نحو القدس ، وكان رجلا غنيا جدا ، وفخورا بأصالته وعراقة نسبه ، وبشجاعة وامجاد أسرته - ذلك ان كل فرنجي تتملكه الرغبة الدائمة في التفوق على أتباعه - وكانت الفوضى التي ثارت ، وتبعث زحف الرجال والنساء لامثيل لها ولا نظير في ذاكرة الأحياء من الناس ، ويلاحظ هنا ان الفقراء والمساكين من الحشود كانوا صادقى النية ، دافعهم الرغبة في التعبد عند ضريح ربنا ، ولزيارة الأماكن المقدسة ، لكن نوي الصلوات الشريرة - خاصة بوهموند وامثاله - كانت لهم غايات أخرى ومقاصد مغايرة ، ذلك انهم املوا انهم سيتمكنون ، اثناء رحلتهم ، من الاستيلاء على العاصمة نفسها ، وكانوا يرون ان الاستيلاء عليها سيكون نتيجة طبيعية لحملتهم ، وكان بوهموند قد افسد نوايا العديد من الأمراء ، ذلك انه كان مايزال يحمل ضغائنه واحقادهم القديمة ضد الامبراطور .

وكان بطرس الناسك اول من عبر مضائق لومبارديا ، وذلك بعدما اتم التبشير بحملته ، وجاء عبوره مع ثمانين الفامن الرجالة ، ومائة الف من الفرسان ، ووصل الى العاصمة عبر هنغاريا (٥) ، ومعروف ان الفرنجة هم في جميع الاحوال قوم شديدو الاندفاع وعاطفيون ، ولديهم قدرة كبيرة على التحمل ، لكن سرعان مايمكن افسادهم واثارتهم واذا مااثيروا يغدون وقتها ممن لايمكن مقاومته .

وعرف الامبراطور ماعاناه بطرس من التركمان ممن

قبل ، ونصحها ان ينتظر وصول بقية الأمراء ، لكنه لم يتقبل النصح ، واغتر بأعداد أتباعه ، وعبر بحر مرمره ، واقام معسكره على مقربة من مكان صغير اسمه هيلينوبولس ، وقد انضم اليه فيما بعد بعض النورمانديين ، وكان تعدادهم عشرة الاف ، لكنهم مالبثوا ان تميزوا عن بقية الجيش ، وانفصلوا عنه ، وشرعوا بنهب المنطقة المحيطة بنيقية ، وانزلوا بالأهالي جميعا صنوفا من الفظائع مرعبة ، فقد قاموا بتقطيع بعض الأطفال الى قطع ، ووضعوا بعضهم الآخر على قضبان خشبية ، وقاموا بشيخيم فوق النار ، وجرى اخضاع الشيوخ لجميع انواع العذاب .

ولدى الوقوف على اخبار ماكان يحدث ، فتحوا في الحال ابواب المدينة ، وحملوا عليهم ، وثار اثر ذلك قتال ملحمي ، قاتل فيه النورمان بحماس واندفاع شديدين ، مما حمل أهالي نيقية على التراجع الى داخل حصنهم ، وهكذا عاد النورمان الى هيلينوبولس يحملون جميع الغنائم ، وهناك ثار جدال بينهم وبين البقية - الذين لم يشاركوا في الاغارة - وتطور هذا الجدال المعتاد في مثل هذه الأحوال ، والذي سببه حسد البقية وغيرتهم من الذين قاموا بالاغارة ، تطور الى شجار صاخب ، وقام اثر ذلك الأبالسة النورمان بالانفصال ثانية للاغارة على اكرزغوردوس التي استولوا عليها ، وكانت ردة فعل السلطان تجاه ماحدث ان بعث بواحد من نوابه على رأس قوة كبيرة ليتولى حسم دأئهم ووضع حد لأذاهم ، ووصل هذا القائد الى اكرزغوردوس واستولى عليها ، وكان مصير النورمان ان جعل بعضهم طعامه للسيف ، واخذ بعضهم الآخر أسرى ، ثم قام بوضع خطة مناسبة لتوجيه ضربة قاصمة لظهور البقية الذين كانوا مايزالون برفقة بطرس ، ونصب عددا من الكمانن في أماكن مناسبة ، على أمل أن العدو تسمير بها وهو في طريقه الى نيقية ، وأنه سيقع في الشراك المنصوبة له دونما ادراك ، وحينذاك سيتم تدميره واقناء رجاله ، وحيث انه كان على بينة من حب الفرنجة للمال ، اختار اثنين من رجاله من نوي المهارة والبراعة ، وبعث بهما الى معسكر

بطرس . و امرهما ان يعلننا هناك بان النورمان قد استولوا على نيقية ، وانهم يقومون بتوزيع غنائم المدينة فيما بينهم ، وكان لهذه الحكاية فعل السحر على رجال بطرس ، الذين ما ان سمعوا عبارتي « توزيع » و « مال » حتى هاجوا وماجوا وتسارعوا لتوهم مندفعين دون توقف باتجاه طريق نيقية ، وهم في حالة فوضى كاملة ، ودونما ادنى مراعاة لمسائل النظام العسكري ، وشروط التعبئة الصحيحة التي ينبغي ان يتسم بها الرجال الزاحفين إلى الحرب ، لكن كما قلت من قبل : إن الجنس اللاتيني جشع للثروة في جميع الأحوال ، فهم حين يخططون لغزو بلد ما ، لا يمكن ضبطهم لا بالعقل ولا بالقوة ، تراهم ينطلقون في فوضى شاملة ، لا يلتفت صاحب على صاحبه ولا يلوي رفيق على رفيقه ، ووقعوا على مقربة من موقع اسمه دراكون في كمين التركمان ، فذبحوا بكل تعاسة وشقاء ، وكان عدد الحشود الفرنجية والنورماندية التي افنتها سيوف ابناء اسماعيل كبيرا جدا ، إلى حد أنهم لما جمعوا بقايا الذين قتلوا ، في مكان واحد ، شكلوا ما يماثل مرتفعا كبيرا جدا ، أنا في الحقيقة لا يمكنني ان اقول إنه مثل قطعة عظيمة من جبل أو أنه تل أو قمة ، لكن اقول إنه جبل بارتفاع كبير وعميق وعريض وعظيم جدا ، إلى حد أن بعض الرجال - من الجنس نفسه - عندما تمكنوا فيما بعد من قتل البرابرة ، وجدوا أنفسهم وهم يقومون ببناء اسوار دفاعية [حول معسكرهم] تشبه اسوار المدينة ، يقدمون على استخدام عظام الموتى باعتبارها مواد لسد الشقوق ، وهكذا صار من الممكن القول أن المدينة غدت قبرا لهم ، وما زالت هذه المدينة قائمة حتى يومنا هذا وهي محاطة بأسوار مشيدة من مزيج من الحجارة والعظام .

ولدى انتهاء عملية القتل تمكن بطرس وحفنة من الرجال فقط من الفرار والعودة إلى هيلينوبولس ، ورغب التركمان في التمكن من أسره ، فأقاموا لهذه الغاية الكمائن ، ونصبوا الاشرار ، لكن الامبراطور الذي سمع أخبار ما حدث ، وخاصة أخبار المنبحة الرهيبة ، رأى أن الأمر سيكون عظيم الوقع إذا ما وقع بطرس

بالأسر ، لذلك بادر إلى ارسال قسطنطين يورفوربينوس ، كاتا كالون (الذي غالبا ما ورد ذكره في هذا التاريخ) مع جيش قوي ، ركب ظهر عدد من السفن الحربية ، وذلك عبر المضائق ، لتقديم المساعدة له ، والعمل على انقاذه ، ولدى وصوله فر التركمان ، وبادر كاتا كالون دونما تأخير الى التقاط بطرس واصحابه (فلقد كان هناك قلة فقط) وجلبهم سالمين إلى الكسيوس ، الذي ذكر بطرس بحماقاته منذ البداية ، واخبره أن النوازل التي حلت به ، ما كانت إلا بسبب عدم اصغائه لنصائحه ، وأعلن بطرس بعجرفة لاتينية ورعونة معتادة ، عدم مسؤوليته عما حدث ، ولام رجاله على ذلك ، لأنهم - كما قال - كانوا غير مطواعين ، وتبعوا رغبات نفوسهم ، وقد دعاهم باسم عصابات ولصوص أوغاد ، وعلى هذا كانوا غير لائقين بالانتساب إلى المخلص ، وغير جديرين بعبادته عند القبر المقدس .

وكان بعض الفرنجة على شاكلة بوهيموند وعصاباتة قد وجدوا في دعوة بطرس فرصة مناسبة ، فأحدثوا فوضى عظيمة عن طريق خداع الأناس السذج ، ذلك أن الشهوة إلى تملك الأراضى البيزنطية ، والرغبة في الاستيلاء عليها قد استولت على نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولهذا أقدم هؤلاء القوم على بيع أراضيمهم ، بدعوى أنهم مغادرون البلاد لحرب التركمان ، ولتحرير القبر المقدس .

وقام احدهم واسمه هيوج (٦) ، وكان اخا لملك فرنسا ، كما انه كان شديد الفخار بمكانته ونبالة اصله ، وثروته وقوته ، قام وهو عازم على مغادرة بلاده - بالظاهر بدعوى الحج الى القبر المقدس - بارسال رسالة غامضة إلى الامبراطور ، بأنه ممن المتوقع أن يقدم له - أي لهيوج - استقبالا رائعا ، قائلا : « اعلم ايها الامبراطور ، بأنني أنا ملك الملوك ، وأعظم كل من هو تحت قبة السماء ، وإنها ارادتي واوامري ، بأن تقوم بلقائي لدى وصولي ، وباستقبالي بكل مظاهر الأبهة والحفاوة التي تليق بمقامي النبيل » .

وحدث أثناء وصول هذه الرسالة إلى الكسيوس أن كان جون بن اسحق المشرف العام للامبراطورية ، هو دوق دراخيوم ، ونيقولا مافروكان كاتاكالون قائدا للأسطول ، وكان قد ألقى مراسم سفنه مرة حول ميناء كان هناك ، وقام من هذه القاعدة بعدة رحلات استطلاعية ، لمنع سفن القرصان من الأبحار مفلتة من المراقبة ، وبعث الامبراطور إلى هذين الرجلين بتعليمات مستعجلة ، كان فيها على الدوق أن يرقب وصول هيوج برا وبحرا ، وأن يخبر الامبراطور الكسيوس ساعة وصوله ، وكان عليه أن يستقبله بحفاوة كبيرة ، وكان على اميرال الاسطول أن يديم اليقظة بلا انقطاع ، ودون أن تكون هناك أية راحة أو اهمال مهما كان نوعه .

ووصل هيوج إلى لومبارديا سالما ، وبعث من هناك برسله إلى دوق دراخيوم ، وكان تعدادهم أربعة وعشرين رجلا ، وكانوا مسلحين بالدرع المحلاة بالذهب ، وكان بصحبتهم كونت وليم التجار (٧) والياس (الذي تخلى عن الامبراطور في سالونيك) ، وتوجه الرسل بالخطاب إلى الكونت على النحو التالي : « ليكن بمعلوماتك أيها الكونت بأن سيدنا هيوج سيكون هنا بعد وقت قصير ، جالبا معه من روما راية القديس بطرس الذهبية (٨) ، واعرف أيضا انه هو القائد الأعلى لجيوش الفرنجة ، قم بإعداد استقبال لائق بمكانته ، واستعد أنت نفسك للقاء به » ، وبينما كان الرسل يسلمون هذه الرسالة ، قدم هيوج من روما إلى لومبارديا - كما سبق وقلت - وأبحر من باري باتجاه ايليركيوم ، لكن واجهته أثناء عبوره عاصفة شديدة ، ففقد معظم سفنه بما في ذلك المجنّفون والبحارة ، ونجت سفينته فقط حيث رميت على الشاطئ في مكان بين دراخيوم وبقعة اسمها بيلز ، وكانت آنذ نصف محطمة ، وقد عثر عليه اثنان من حرس الشواطئ ممن كان ينتظر وصوله ، وقد أنقذاه بمعجزة وخاطباه بقولهما : « إن الدوق ينتظر وصولكم بفارغ الصبر ، وهتواق إلى رؤيتكم » ، وحالما سمع هذا ، طلب لنفسه حصانا ، فترجل واحد من الخفيّرين وقدم له حصانه بكل سرور ، وعندما راه الدوق ، وعرف الطريقة التي أنقذ بها ، حياه ورحب به ، ثم سأله عن

رحلته ، وعما سمعه حول العاصفة التي أغرقت السفن ، وحاول التخفيف عنه وبعث الشجاعة في نفسه ، واحتفى به بمائدة فخمة ، وبعد الاحتفاء به ، ترك الدوق هيوج ليرتاح ، لكنه أبقاه تحت المراقبة ولم يمكنه من حريته الكاملة ، ثم بادر إلى اعلام جون بأخبار المغامر الفرنجي ، وانتظر تعليماته الجديدة ، وقام الامبراطور الكسيوس حال تسلمه الأخبار ببعث تومنز إلى إبيدامنوس (التي دعوناها في مناسبات عدة باسم دراخيوم) لمرافقة هيوج ، لكن ليس عبر طريق مباشر ، وإنما عبر الطريق المغاير المار بفيليبوبولس إلى العاصمة ، ذلك انه كان خائفا من حشود الفرنجة المسلحين القادمين بعده ، واستقبل هيوج في العاصمة استقبالا لائقا من قبل الامبراطور ، الذي استطاع بسرعة اقناعه عن طريق التوسع بالعطاء ، واطهار كل معاني الصداقة ، أن يصبح واحدا من أتباعه بواسطة حلف اليمين المعتاد لدى اللاتين .

وكانت هذه الوقائع مجرد مقدمة ، فبعد مرور خمسة عشر يوما فقط عبر بوهيموند شواطئ كابليون (٩) ، وجاء إثره مباشرة الكونت رتشارد صاحب برنسيبت (١٠) ، وطلب هو أيضا لدى وصوله إلى شواطئ لومبارديا ، الجواز إلى إيليركيوم ، وتم هناك استئجار سفينة قرصان ذات ثلاثة اشعة وحمولة كبيرة ، بمبلغ ستة الاف قطعة ذهبية ، وكانت هذه السفينة تحمل مائتين من المجدفين ، وتجر وراءها ثلاثة قوارب شحن ، ولم يمض ريتشارد إلى اقلونا كما فعلت بقية الجيوش اللاتينية ، لكنه بعدما توقف توقفا قصيرا ، غير اتجاهه قليلا ، وأبحر في ريح طيبة مباشرة إلى خيمارا [ذلك أنه كان خائفا من الأسطول الروماني « البينزنطي »] إنما كان حساله كالفار من الدخان ليقع في النار ، فهو تجنب السفن التي كانت راسية في مختلف النقاط في مضائق لومبارديا ، لكنه اجتاز ممر القائد العام للأسطول الروماني كله ، وهو نيقولا مافرو كاتاكالون نفسه ، وكان هذا الأخير ، قد سمع منذ زمن عن سفينة القرصان هذه ، فأرسل عددا من سفن الاستطلاع السريعة ، والسفن نوات صفين من المجاذيف ، ونوات الثلاثة صفوف ، وذلك من بين القوات

الرئيسية ، وتحرك من قاعدته في أسون إلى كابليون حيث تمركز هناك ، وأرسل القائد صاحب الترتيب الثاني بغليونه^(١١) لمواجهة البحارة العاديين (ليقوم بإضاءة مشعل عندما يرى المجدفين قد اسدلوا حبل الجر من سفينة العدو ورموه في البحر ، ونفذت الأوامر دونما تأخير ، وما إن رأى نيقولا الإشارة حتى أقلع ببعض سفنه ، بينما جرت سفن أخرى بواسطة التجديف - وبدو وكأنهم كالف واحد - ضد رتشارد ، الذي كان الآن وسط البحر ، وقد لحقوا به قبل أن يقطع مسافة ثلاث عقد ، وكان ذلك كله حرصا على الوصول إلى الشاطئ المقابل لأبيدامنوس ، وكان معه على ظهر السفينة ألف وخمسمائة من العساكر ، مضافا إليهم ثمانمائة حصان عادت في ملكيتها إلى نبلائه ، وعندما رأى القبطان نيقولا ، أخبر الفرنجة ، وخاطبهم بقوله « الاسطول السوري حولنا ، ونحن الآن معرضون لخطر القتل طعنا أو تقطيعا » ، وحالما سمع الكونت هذا أمر عسكره بحمل السلاح والاستعداد للقتال ، وكان الوقت منتصف الشتاء - اليوم المقدس المكرس لذكرى نيقولا الحبر الأعظم^(١٢) وكان هناك سكون مميت ، والقمر بدر ، وقد أشرق مشعا أكثر مما يفعل عادة في فصل الربيع ، ونظرا لتوقف حركة الرياح ، لم يعد بإمكان سفينة القرصان التقدم بواسطة الأشرعة ، لذا وقفت هادئة بلا حراك وسط البحر ، وعند هذه النقطة من تاريخي أرى أنه لا بد لي من وقفة لأقدم الشكر والعرفان لما قام به ماريانوس من انجازات ، فقد سأل أباه الدوق قنائد الاسطول أن يعطيه بعض القوارب الخفيفة ، ثم اتجه مباشرة نحو سفينة رتشارد ، وهناكلقى بنفسه فوق مقدمة هذه السفينة ، وحاول أن يصعد إلى ظهرها ، وعندما راه البحارة اندفعوا على الفور نحوه ، ذلك أنهم رأوه مسلحا وجاهزا للدخول في المعركة ، لكن ماريانوس ، الذي أحسن التكلم بلغتهم ، خاطب هؤلاء اللاتين وأخبرهم أنهم ينبغي ألا يخشوا أمرا ، وحضهم على عدم القتال ضد اخوانهم المسيحيين ، ومع ذلك فقد أخذ واحد منهم قوسه وفوقه ورماه بنشابة أصابت خونته^(١٣) ، ونفذت خارقة علاها ، انما دون أن تمس شعرة من رأسه - اي عبرتها بسلام - ودونما تمهل اطلقت نشابة ثانية نحو

الكونت فأصابت ذراعه ، وخرقت ترسه ، ونفذت من خلال درعه ، وخذشت طرفه ، وصدف أن كان هناك راهب لاتيني واقفا في مؤخرة السفينة مع اثني عشر من المقاتلين ، وقد رأى ما حدث ، فأقدم على الرماية بقوسه عدة مرات باتجاه ماريانوس ، ورفض ماريانوس حتى هذه الساعة التسليم ، وقاتل بشجاعة ، قاتل بنفسه وشجع رجاله ليحذو حذوه ، ولهذا وجد رفاق هذا الراهب أنفسهم ، ثلاث مرات على التوالي ، يتراجعون بسبب الجراح والتعب ، أما الراهب نفسه فإنه على الرغم من أنه ضرب مرة تلو الأخرى ، وغطى بالدماء المتدفقة من جراحه ، فإنه تابع القتال دونما مبالاة (١٤) ، وبعد قتال مرير استمر منذ المساء وحتى منتصف اليوم التالي ، تراجع اللاتين امام عزيمة ماريانوس ، وطلبوا منه الرحمة ، ومع هذا فإن الراهب اللاتيني المحارب لم يتوقف عن القتال على الرغم من اعداد ترتيبات الهدنة ، فبعد أن أفرغ جعبته من الأسهم ، التقط بعض الحجارة ، وقذفها باتجاه ماريانوس ، الذي وقى رأسه بترسه ، لكن الترس تحطم إلى أربع قطع ، وانشطرت خوذته ، وأصابته الضربة ، فسقط إلى الأرض فاقدًا وعيه ، وظل فترة من الوقت صامتًا لا يتكلم كما حدث لهكتور الشهير ، عندما أصيب بحجر اجاكس ، وبصعوبة بالغة تمكن من استرداد وعيه ، واستعاد قوته ، فأطلق عددا من الأسهم ضد عدوه ، فأصابه بثلاث جراحات ، ووجد هذا المقدم [ذلك انه كان أعلى من أن يكون مجرد واحد من الرهبان] نفسه انه لم ينته من القتال ، على الرغم من انه استنفد الأسهم والحجارة وكل ما كان لديه ، فبات محتارا : ماذا يفعل ، وكيف يدافع عن نفسه ضد عدوه ؟ وازداد اضطرابا و غضبا ، فأعد نفسه للانقضاض مثل حيوان متوحش هائج ، وصار على استعداد لأن يستخدم كل ما تصل إليه يده ، حتى أنه عندما صدف سلة مملوءة بالكعك المصنوع من الشعير ، أخذ يقذف بالكعكات كما لو كن من الحجارة ، و كان يتناولهن ويرمي بهن كما لو أنه كان في حفل ، أو أثناء تأديته للقداس ، محولا الحرب إلى نوع من الطقوس المقدسة ، و التقط احدى الكعكات ورمها ، بكل ما أوتي من قوة ، نحو وجه ماريانوس فأصاب وجنته ، ودون اضافة لمزيد من

التفاصيل حول هذا الراهب ، نخلص الى القول ان السفينة وبحارتها وكذلك الكونت رتشارد نفسه سلموا انفسهم جميعا الى ماريانوس ، وتبعوه بكل رضى ، وعندما وصلوا الى الياينة ، ونزلوا اليها ، استمر الراهب المذكور يبحث عن ماريانوس ، ذلك انه لم يعرف اسمه لكنه عرف صفته ، وقد نعتة للون ثيابه ، وعندما وجده أخيرا ، القى بسلاحه جانبا ، وضمه اليه وقال متبجحا: « لو قابلني على الياينة للإقى عدد كبير مذكم حتفه على يدي، وتناول من وسط ثيابه كأسا كبيرا من الفضة يساوي مبلغ مائة وثلاثين قطعة ذهبية ، وناوله لماريانوس ، وهو يتفوه بعباراته ، ثم سقط ميتا.

وعبر في تلك الأثناء الكونت غودفري ومعه عدد من الكونتات بصحبة جيش قوامه عشرة آلاف فارس وسبعين الفام من الرجالة ، ولدى وصوله الى العاصمة ضرب معسكره في بربوتنس ، ما بين الجسر القريب من الكوسميدسيون (دير القدس كوسماس) وكنيسة القديس فوقاس ، لكن عندما حضره الامبراطور على التوجه حتى النهاية القصوى لبريوتنس ، تقاعس وأجل التنفيذ من يوم الى آخر ، وأخر عملية العبور بسلسلة من الأعدار المختلفة ، وفي الواقع كان غودفري ينتظر وصول بوهيموند وبقية الأمراء ، ومعروف أن بطرس الناسك كان قد قام في البداية برحلته الكبيرة للقتال عند القبر المقدس ، لكن الزعماء الآخرين - وخاصة بوهيموند - عاشوا على دغدغة أحلام جشعهم القديمة ضد الكسيوس ، وانتظروا الفرصة المناسبة للانتقام للنصر الرائع الذي ناله الامبراطور في لاريسا ، لقد عاشوا جميعا على أمل واحد في بلورة أحلامهم بالسيطرة على القسطنطينية ، ولهذا تبنا سياسة عامة واحدة ، فانا غالبا ما اشرت الى هذا وأوضحنا بأنهم كانوا يتظاهرون بأنهم على نية الحج ، ولكنهم في الحقيقة كانوا قد خططوا لخلع الكسيوس والاستيلاء على العاصمة ، و لكن لسوء حظهم كان الامبراطور يعرف خساسة طباعهم وما جبلوا عليه ، وذلك نتيجة لطول التجربة ، ولهذا أصدر أوامره بتحريك القوات الاحتياطية كتلة

واحدة من اثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطئ البحر الأسود) وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى بوهيموند وبقية الامراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التالي: وجه الامبراطور الدعوة الى بعض الامراء الذين كانوا برفقة غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك ان ينصخهم بأن يحرضوا غودفري على تقديم يمين الولاء للامبراطور ، واضاع الامراء اللاتين - كما جرت عادتهم - الوقت كله بكلماتهم الجوفاء المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة كاذبة وراجت حتى وصلت الى الفرنجة ، و كان فحواها بأن الامراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثوا ان ثاروا واخذوا يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتدئين بالهجوم على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فدمروها تدميرا كاملا ، ثم هاجموا اسوارها لكن ليس بالمنجنيقات - ذلك انه لم يكن لديهم هذا السلاح - إنما بكتلهم اعتقادا منهم انهم بأعدادهم الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة وخدمهم الذين تولاهم الهلع ، نظرا لعدم معرفتهم بفن الحرب ، ولهذا ضربوا صدورهم وانتحبوا عندما راوا صفوف اللاتين ، بل استولى الرعب حتى على الجماعات المقربة من الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متذكرين يوم الخميس الذي سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨) وكانوا يخشون ان يحل بهم في هذا اليوم الانتقام (١٩)؛ (بسبب ما حدث لهم يومذاك) وتسارع جميع الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هادئا: فلم يحاول التسلح ، او حتى وضع درع على جسمه ، او حمل ترس او رمح بيده ، او اشهار سيفه ، بل جلس بكل هدوء وثبات على العرش الامبراطوري ، ينظر اليهم بوجه مشرق ، مشجعا ايهم ، وبأنا الروح العسالية والطمأنينة في قلوبهم ، وكان الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع اقربائه وكبار القادة للبحث والتشاور حول خطط المستقبل ، وقد اصر - بالدرجة الاولى - على انه ينبغي الا يغادر شرفات الاسوار لقتال اللاتين

مهما كان السبب ، بسبب سمة قداسة ذلك اليوم (كان يوم الخميس من الاسبوع المقدس ، اعظم الاسباع قداسة في السنة حيث ذاق الرب فيه الام الموت في سبيل خلاص العالم اجمع) وبالدرجة الثانية لأنه رغب في تجنب سفك الدماء بين المسيحيين ، وقام عدة مرات بارسال المبعوثين الى اللاتين ناصحا إياهم بالامتناع عن مثل هذه الأعمال قائلا لهم : « ابدلوا الاحترام لهذا اليوم ، فالرب ضحى بنفسه من أجلنا مزدريا كل من الصليب والمسامير والحربة كوسائل لعقاب مرتكبي الآثام ، لانقاذنا ، وإذا كان لا بد لكم من الحرب ، فنحن سنكون بدورنا جاهزين ، لكن بعد مرور يوم قيامة الرب » ، لكنهم كانوا أبعد من أن يصغوا لكلماته ، وبدلا من ذلك زادوا من تقوية صفوفهم ، وكانت رشقات سهامهم كثيفة الى حد أن واحدا من حاشية الامبراطور أصيب بصدرة ، وعندما رأى بقية رجال الحاشية ذلك ، تحلقوا حول الامبراطور من جميع الجهات ، لكنه بقي جالسا غير مضطرب ، مهدئا لهم وموجها النقد اليهم بطريقة لطيفة ، ثم قام وسط دهشة الجميع ، عندما رأى المهاجمين اللاتين يقتربون من الأسوار ، ويرفضون النصائح المفيدة ، قام باتخاذ اول اجراء - للمرة الأولى - فاستدعى صهره نقفور (قيصري) وأمره أن ينتخب أفضل المحاربين من الرماة المجريين ، ويمركزهم على شرفات السور ، وأن يقوموا جميعا برشقة جماعية من الأسهم نحو اللاتين ، إنما دون تسديد ، بل في الفراغ بغية اخافة الأعداء ، لكن مع تجنب القتل بأي ثمن ، ذلك أنه - كما سبق لي أن بينت - كان يخشى تدنيس ذلك اليوم ، ويرغب في منع الاقتتال الأخوي ، وأمر مجموعة من الرجال المنتخبين ، كان بعضهم يحمل القسم ، وبعضهم الآخر رماحا طويلة ، أمرهم بفتح بوابة القديس رومانوس ، وأن يندفعوا ببطء ، يتصف بالقوة والعزيمة والعنف ضد الأعداء ، وكان مع كل رماح ترسين ليتمكن من وقاية نفسه وحمايتها من على الجانبين ، وكان بإمكانهم ، وهم في هذه التشكيلة ، أن يزحفوا بخطى تامة ، وأرسل الامبراطور أمام هؤلاء عددا من الرماة المهرة ، ليتولوا الرماية نحو العدو من مسافة

بعيدة ، وان ينتقلوا يمينة ويسرة حسب ما يقتضيه الحال عندما تضيق المسافة في جانب من الجوانب ، بين الجيوشين ، وكان بعد هذا على القادة ان يشيروا الى الرماة الذين كانوا برفقتهم ليقوموا برمايات كثيفة نحو الخيول وليس نحو الخيالة ، ثم الاندفاع بسرعة تامة ضد العدو ، وكانت الغاية من جهة واحدة تمزيق تجمع قوى الهجوم الفرنجي بعقر مطاياهم (حيث إنهم لن يجدوا من السهولة الركوب في تلك الحالة) ومن جانب آخر (وهذا أكثر أهمية) تجنب قتل المسيحيين ، وروعت تعليمات الامبراطور وطبقت بكل سرور : فتحت الأبواب على مصراعيها ، وأعدت الخيول ، وقيدت نحو العدو ، وتم قتل العديد من الفرنجة ، وقلة فقط من الروم هم الذين اصيبوا - ذلك اليوم - بجراح .

ولندع الآن هؤلاء ، ونعود الى سيدي القيصر ، حيث تركناه يقود رماة المجريين ، ويمركزهم على الأبراج ، حيث وجهوا من هناك رماياتهم ضد البرابرة ، وكان مع كل واحد منهم قوس صحيح بعيد المدى ، وكانوا جميعا من الشباب ، البارعين براعة تيسر *Teuer* بالرماية عند هومر « لم يشد وتر قوسه حتى يلامس صدره ، ليجر بعدها السهم ، حتى يكون رأسه المعدني قرب القوس (٢٠) ذلك أنه لم يكن يقوم بعرض للبراعة في الرمي حسب طرائق الصيادين ، بل قام - وكأنه هرقل جديد - برمي سهم مميتة - من قوس غير ميت ، وأصاب أهدافه حسبما أراد ، وكان في اوقات سابقة ، عندما شارك في مباراة للرماية ، أو في معركة ، لم يخطيء له سهم هدفه قط ، مهما كان الجزء - من جسم الانسان - المسدد نحوه ، فقد كان لا مندوحة من اصابته هناك ، وكان يقوم بشد وتر قوسه والرماية به بسرعة مذهلة ، الى حد ان تيسر والاجكسان ، لم يكونا معادلين له في الرماية ، ومع هذا كله ، وعلى الرغم من براعته بالرماية ، فإنه راعى - في تلك المناسبة - حرمة ذلك اليوم ، وتمسك بعسرى تعاليم الامبراطور ، لذلك عندما كان يرى واحدا من الفرنجة ، يقترب من الأسوار بحماقة واضطراب ، حاميا نفسه بدرع وخوذة ، كان يفوق

سهمه ويشد وتر قوسه ، ويرمى نحوه ، لكن لا يصيب الهدف ، بل لتأتي النبلة أمامه أو خلفه ، فمن أجل قداصة ذلك اليوم تمنع عن الرمي بشكل مباشر نحو اللاتين ، ومع ذلك فعندما كان واحدا من هؤلاء يصير في تعنته وحماقته ، ليس عن طريق الرماية على المدافعين الواقفين خلف الشرافات ، بل حتى بصب كميات كبيرة من الشتائم والسباب بلغته ، عندها قام القيصر بشد وتر قوسه « ولم يدع السهم يطير عبثا من بين يديه » بل ليخرق ، الدرع الطويل الذي حمله الفرنجي ، وليمر خارقا سابغته ، وبذلك كان يصيب سلاحه ويجرح جنبه ، وهكذا يجعله « يسقط بلا حراك » - كما يقول الشاعر (٣١) فتصعد اصوات الروم الى عنان السماء تحية وتشجيعا لقيصرهم ، ومثله يعلو عويل اللاتين باكين محاربهم المقتول ، وهكذا تجدد القتال بشدة ، وتحارب فرسانهم ورجالنا - على مقربة من الأسوار - بكل شجاعة ، وكان القتال ضاريا ومريرا على كلا الطرفين ، لكن عندما قذف الامبراطور بحرسه الى قلب المعركة ، انعطفت صفوف الفرنجة ، ولانوا بالفرار ، وعليه قام هيوج في اليوم التالي بتوجيه النصيحة الى غودفري كيما ينصاع الى رغبات الامبراطور ، هذا إذا لم يكن يرغب أن يتعلم للمرة الثانية عن مدى خبرة الكسيوس وبراعته باعتباره قائدا حربيًا ، لكن غودفري انتقده بشدة قائلا : « لقد تركت بلادك وانت ملك تمتلك الثروات ، وجيشا قويا ، وانحدرت الآن بنفسك من السمو الى درجة العبيد ، ثم تأتي الي بعد هذا وكأنك قد لاقيت نجاحا عظيما لتطلب مني أن افعل الشيء نفسه ، لقد كان علينا إذا أن نبقى في بلادنا ، ونحفظ أيدينا ونرفعها عن بقية الناس » وأجابه هيوج « لكن أما وقد أتينا في بلادنا كل هذه المسافة ، نحن نحتاج الى حماية الامبراطور ، ولن نحصل على أية منافع ما لم نطع أوامره » ولم يجد هذا نفعا ، وطرد هيوج دون أن يحصل على شيء ، ولم تثمر جهوده ، ولهذا السبب ولحصول الامبراطور على معلومات مؤكدة ، فيها أن جميع الأمراء الفرنجة يتقدمهم غودفري قد اقتربوا من أسوار المدينة ، قام الكسيوس بارسال بعضا من خيرة ضباطه ، وبصحبة كل منهم قواته ، لتوجيه

النصائح اليهم مرة ثانية ، أو حتى للعمل على اجبارهم على عبور المضائق.

وما ان اصبحت على مرأى من اللاتين ، حتى نهضوا من غير تردد ولو للحظة واحدة ، وحتى من غير التوقف لسؤالهم: ماذا يريدون ، وقاموا بالهجوم عليهم ، وشرعوا بقتالهم ، وسقط في القتال عدد كبير من القتلى بين الجانبين ، وفقدوا حياتهم في هذا الالتحام المرير ، وأصيب جميع رجال الامبراطور - الذين قاتلوا بشجاعة - بالجراح ، ونظرا لشجاعة الروم ، وارتفاع معنوياتهم ، تراجع اللاتين ، وقرر غودفري تقديم الطاعة من غير تأخير ، فجاء الى حضرة الامبراطور ، وأقسم يمينا أملي عليه ، فيه انه ما من بلد ، أو موقع أو حصن ، سيكون في المستقبل من الممكن الاستيلاء عليه ، و كان من قبل يعود في ملكيته للامبراطورية الرومية ، سيقوم بالتخلي عنه ، وتسليمه الى الضابط المنتدب من قبل الامبراطور خصيصا لهذه الغاية ، وتسلم غودفري بعد اقسامه لليمين - هدايا سخية ، ودعي الى مجالسة الامبراطور ، حيث جرى الاحتفاء به في مأدبة رائعة ، ثم جاز عقب هذا الى بليكانوم ، واقام معسكره ، وأصدر الامبراطور ، إثر ذلك تعليماته بتوفير كميات كبيرة من المؤن له ولرجاله.

ووصل في آثار غودفري الكونت راؤول ، (٢٢) و برفقته خمسة عشر ألف من الخيالة والرجالة ، وعسكر مع الأمراء الذين كانوا برفقته في بربوتنس على مقربة من دير البطريرك (٢٣) ، بينما عسكر البقية على امتداد الساحل حتى سوزنيون ، وقد حذا حذو غودفري ، حيث توقف ينتظر وصول هؤلاء الذين كانوا قادمين بعده ، واستخدم الامبراطور ، الذي كان يخشى هذا (متوقعا ما يمكن أن يحدث) كل وسيلة مادية ونفسية ليجعلهم يسرعون الى عبور المضائق ، من ذلك على سبيل المثال ، انه استدعى اوبوس - الذي كان رجلا له اخلاق رفيعة ، وما من أحد يفوقه في معلوماته العسكرية - ولما مثل في حضرة الامبراطور ، بعثه مع عدد

من الرجال الشجعان الى راؤول ، وكانت التعليمات الصادرة اليه واليهم ، العمل على اجبار الفرنجة على المغادرة الى الجانب الاسيوي ، وعندما وضح له ان راؤول ليست لديه النية في الذهاب ، بل اتخذ موقفا معاديا كله رعونة تجاه الامبراطور ، حمل سلاحه ، وصف رجاله وعبأهم للمعركة ، ربما لاضافة البرابرة ، ظنا منه بهذه الوسيلة يمكنه ان يقنعهم بالابحار ، لكن ردة فعل الفرنجي جاءت بالحال ، حيث تقبل ، مع رجالته المتوفرين ، التحدي « مثل الاسد الذي يبتهج عندما يجد صيدا كبيرا » واندلعت نيران معركة حامية الوطيس ، ووصل في تلك الساعة بيجاسيوس ، بواسطة البحر ، لنقل الفرنجة الى الطرف الاخر ، ولدى رؤيته القتال على الارض ، وان الفرنجة يرمون بانفسهم دون مبالاة على صفوف الرومان ، نزل الى اليابسة ، واشترك في القتال ، فهاجم الاعداء من الخلف .

وسقط في هذا المعترك عدد كبير من القتلى ، لكن عدد الجرحى كان اكبر ، وسال الناجون من الفرنجة ، وهم في الوضع الجديد - ان يتم نقلهم عبر المضائق ، ظانين انهم اذا ما التحقوا بغودفري واخبروه بتفاصيل ما حل من كوارث ، لربما يثبته ذلك ، لاتخاذ اجراء ما ضد الروم .

واستجاب الامبراطور - بكل تعقل لمطلبهم - ووضعهم - بكل سرور - على ظهر السفن ، ونقلهم الى الطريق نحو قبر المخلص ، سيما انهم هم انفسهم كانوا يريدون ذلك ، وارسلت بعد ذلك رسائل ودية كلها امان ووعود جميلة الى الامراء الذين كانوا ما يزالون ينتظرون ، ونتيجة لذلك ، فإنهم عندما وصلوا الى القسطنطينية نفذوا بكل رضى تعليمات الامبراطور .

هذا ما كان من امر الكونت راؤول ، فقد وصلت من بعده فرقة كبيرة جدا ، فيها حشود من الناس تفوق العد والحصر ، تجمعوا جميعا من جميع اراضي الفرنجة ، ومعهم قادتهم (من ملوك

وسوقات وكونتات وحتى أساقفة) ، وأرسل الامبراطور رسلا من لدنه للترحيب بهم ، واتبعهم برسائل لطيفة ، وكان من عادة الكسبيوس عدم اللجوء الى الطرق الماكرة ، وكان يعرف كيف يتمسك بنقاط التفوق أمام خصمه ، وجرى تعيين عدد من الضباط للقيام بمهام تلقي الحشود ، وأمروا بإعداد الميرة اللازمة للرحلة ، ذلك أنه من المتوقع الا يجد الحجاج سببا للشكوى ، مهما كان ، وتابع الحجاج في الوقت نفسه اندفاعهم بكل حماس ورغبة نحو العاصمة ، ويمكن للمرء أن يقارن تعدادهم بنجوم السماء أو بذرات الرمال على الشواطئ وكان عددهم في الحقيقة وهم مندفعون نحو القسطنطينية مثل « أوراق الربيع وزهوره » (٢٤) . كما قال هومر [

ومع رغبتى الشديدة في الاقدام على تسمية قادتهم ، فإنني أفضل عدم فعل ذلك ، لأن الكلمات تخونني بسبب عدم مقدرتي على التفوه بالأسماء البربرية - ذلك أنها غير موائمة لنا - ثم إنني أجد نفسي ارتجف أمام أعدادهم الكبيرة ، وعلى كل حال لا أجد سببا مسوغا يفرض علي تسجيل أسماء عدد هائل من الحشود ، لا سيما وأن معاصريهم أصبحوا الآن ينظرون إليهم بلا مبالاة .

وعندما وصل هؤلاء الأمراء أخيرا إلى العاصمة ، صفوا عساكرهم - قرب دير القديس كوسماس والقديس داميان وامتدوا حتى الهيرون ، واحتاج ضبطهم إلى تسعة من المنادين - حسب العادة الاغريقية القديمة عن طريق النداء ، وقد رافقهم عدد مناسب من الجنود الذين أقنعوهم بالطاعة أوامر الامبراطور ، مع فكرة فرض القسم نفسه الذي أقسمه غودفري ، ودعا الامبراطور الأمراء إلى زيارته فرادى وتحدث معهم على انفراد ، حول رغبتهم ، واستخدم كل الوسائل المعقولة لاقتناع المترددين ، وعندما رفضوا نصائحهم - لأنهم كانوا ينتظرون بقلق عظيم قدوم بوهيموند - وابتدعوا طرائق غبية للتملص بتقديم المزيد من المطالب ، رفض بدوره اعتراضاتهم من غير أية صعوبات ، وضغط

عليهم بمائة وسيلة حتى أجبرهم على تأدية القسم ، وتمت دعوة
غودفري نفسه للعبور من بيلكانوم ليشهد الاحتفال ، وعندما حضر
الجميع ، بما فيهم غودفري ، وبعد أن أخذ اليمين على كل واحد من
الأمراء ، تجرا واحد من النبلاء [اللاتين] بالاقدام على الجلوس
على عرش الامبراطور ، وتحمل الكسيوس هذا دون أن يتفوه ببنت
شفة ، عارفا الطبع الرديء لجماعة اللاتين ، لكن كونت بلدوين
توجه نحو الرجل وامسكه من يده وجعله يقوم ، ثم وجه إليه توبيخا
شديدا ، وقرعه بقوله : « كان عليك الا تفعل شيئا من هذا القبيل
ابدا ، خاصة بعدما اقسمت وتعهدت بأن تكون واحدا من اتباع
الامبراطور ، إن الاباطرة الروم لا يدعون رعاياهم يجلسون معهم ،
وهذه هي العادات هنا ، وعلى الرجل الذي اقسم يمين التبعية
لصاحب الجلالة الامبراطورية أن يراعي عادات البلاد ، ولم يجب
الرجل بلدوين بأي شيء لكنه نظر شزرا نحو الكسيوس ، وتمتم في
نفسه ببعض الكلمات في لغته الخاصة قائلا : « أي فلاج هذا ،
يجلس وحيدا ، بينما يقف قادة كبار مثل هؤلاء إلى جانبه ، وراى
الكسيوس شفاته تتحركان فاستدعى واحدا من المترجمين الذين
يفهمون لغته ، وسأله عما قال ، وبعدما أخبره بمقولته لم يوجه أي
تعليق للرجل في تلك اللحظة ، إنما أبقى التعليق في نفسه ، لكن عندما
كانوا يقومون بتوديعه بعث خلف ذاك الرجل الأرعن المتعجرف ،
وسأله من يكون ، ومن أين جاء ، وما هو نسبه ؟ فأجابه : « أنا
فرنجي نقي ، وصاحب أصل نبيل ، وأعرف شيئا واحدا : هناك عند
مفترق الطرق في البلاد التي ولدت بها ، معبد قديم (٢٥) يأتي إليه كل
من يرغب بالنخول في مبارزة فربية ، فيستعد للقتال ، ويدعو الله ان
يسعده ، ويمكث هناك ينتظر الرجل الذي يجزؤ أن يرد على تحديه ،
عند مفترق الطرق هذا ، أمضيت وقتا طويلا أنتظر بكل شوق الرجل
الذي سيقدم للمبارزة ، لكن لم يأت أحد قط ، ولم يوجد من تجرا
على ذلك ، ولدى سماع الامبراطور ذلك قال له : « إذا لم تحصل
على من تقاتله آنذاك ، بعد انتظار طويل ، فالآن لديك فرص ممتازة
لاكثر من مبارزة ، لكنني أوصيك بكل شدة الا تتمركز في مؤخرة
الجيش ، ولا في المقدمة ، ولكن اتخذ موقفك في قلب الجيش مع

المراتب الأدنى ، إنني عارف بطرائق الأعداء ، ولي تجارب طويلة مع التركمان ، ولم يوجه الامبراطور النصيحة له وحده ، لكنه أندر الجميع لدى مغادرتهم إياه وحذرهم من المخاطر الكثيرة والمعقدة التي يمكن أن تواجههم أثناء الرحلة ، وأوصاهم بعدم مطاردة العدو بعيدا إذا ما منحوا النصر عليه ، خشية الوقوع في الكمائن التي ينصبها القادة التركمان ، فيكون نصيبهم القتل .

هذا ما كان بالنسبة لغودفري وراؤول ومن جاء معهما ، ووصل بعد هذا بوهيموند إلى أبروس مع بقية الأمراء ، عارفا نفسه أنه لم يكن من أصل نبيل ، ومن غير قوات عسكرية خاصة به من الأتباع ، لقلة موارده ، وكان يرغب في كسب رضى الامبراطور ، لكنه كان في الوقت نفسه يخفي مشاعره العدوانية ونواياه الخبيثة ضده ، وأسرع بوهيموند ، على رأس عشرة من الفرنجة بغية الوصول إلى العاصمة قبل وصول الآخرين ، وأدرك الكسيوس خططه ، ذلك أنه خبير منذ زمن مديد بساؤس بوهيموند ، وطبيعته الخيانية ، ولذلك رغب بالحديث معه قبل وصول أتباعه ، لقد كان يريد أن يسمع ما يمكن أن يقوله بوهيموندون أن يملك الفرصة لافساد البقية - ذلك أنهم لم يكونوا على مسافة بعيدة - وأمل في اقناعه بالعبور إلى آسيا .

وعندما مثل بوهيموند في حضرة الامبراطور ، بإياه بمنحه ابتساما وسأله عن رحلته ، وأين ترك بقية الأمراء ؟ و أجابه بوهيموند على أسئلته بكل صراحة ، وقدم له أحسن ما كان لديه من معلومات ، وذكره الامبراطور بكل لطف بأعماله الجريئة ضده في لاريسا ودراخيوم ، وبذشاطاته العدوانية السابقة ، فأجابه بوهيموند : « لقد كنت آنذاك عدوا ، لكنني قدمت الآن بمطلق حريتي وإرادتي لأكون صديقا لك يا صاحب الجلالة » ، ثم تحدث الكسيوس معه أحاديث طويلة ، وبشكل جانبي لعله يكتشف مشاعر الرجل الحقيقية ، ولدى استخلاصه بأن بوهيموند على استعداد لأداء يمين الولاء قال له : « إنك الآن متعب من الرحلة ، اذهب واسترح ، وفي الغد يمكن أن نتباحث في القضايا ذات الاهتمام المشترك ، ومضى

بوهيموند إلى قصر كوسمديون حيث أعد له جناحا خاصا ، وهيئت لأجله مائدة عليها جميع أنواع الأطعمة اللذيذة ، وجاء الطباخون ، بعد وقت قصير ، بكمية من لحوم الحيوانات والطيور غير مطبوخة وخاطبوه بقولهم : « كما ترى لقد أعدنا الطعام حسب طرائقنا المعتادة ، و إن كان ذلك لايناسبك ، ها هنا لحم نبيء يمكن أن يطهى تبعا للطريقة التي ترغب بها » ، وحين قال الطباخون ما قالوه وفعلا ما فعلوه إنما كانوا ينفنون تعليمات الامبراطور ، فلقد كان الكسيوس نكيا ، لديه قدرة الحكم على صفات أي رجل ، وكان يقرا بعمق التفكير الداخلي له ، وكل ما كان يدور في خلد ، ولمعرفته بالجبله الخبيثة لبوهيموند ، فقد كان محقا حين قدر ما يمكن أن يحدث ، وحتى لا يرتاب ، أمر بجلب اللحم الذي إليه ووضعه أمامه ، وكان هذا التصرف حركة بارعة جدا من قبله ، ذلك أن الفرنسي الماكر لم يكتف برفض تذوق أي جزء من الطعام ، وأقدم على توزيعها بين خدمه ، دون أي اشارة إلى شكوكه الخفية ، بل بدا وكأنه يحسن إليهم ويصنع معهم معروفا ، لكن ذلك كان رياء أكثر منه حقيقة ، فإذا ما تفحص المرء هذه القضية بدقة ، يجده في الحقيقة قد قدم لهم كأس المنون ، ولم يكن هناك أية محاولة لتفطية عمله الخياني هذا ، فهو اعتاد على معاملة خدمه بالامبالاة التامة ، ومهما يكن الحال ، فقد أخبر طباخه الخاص أن يقوم باعداد اللحم غير المطهو حسب الطريقة الفرنسية المعتادة ، وسأل في اليوم التالي : خدمه عن أحوالهم ، فأجابوه أنهم بخير ، وأضافوا أنهم لم يشعروا بأي ضرر من تناول ذلك الطعام ، ولدى سماعه هذه الكلمات ، أباح عن مكنون تخوفاته بقوله : « بالنسبة لي ، إنني عندما تذكرت الحروب التي خضتها ضد الامبراطور ، بغض النظر عن المعركة المشهورة التي حاربت بها ، كنت أخشى أن يعمل على قتلي بدس السم في طعامي » .

هذه هي اعمال بوهيموند ، ولا بد لي من القول : إنني لم أر في حياتي رجلا شريرا مثله ، حاد في جميع اعماله وأقواله عن جادة الصواب ، تماما دون توسط أو اعتدال .

واستدعى الامبراطور بعد هذا بوهيموند ، وطلب منه ، كما طلب من الآخرين ، أن يقسم يمين الولاء اللاتيني المعتاد ، وادراكا من بوهيموند لحقيقة وضعه الخاص استجاب بكل سرور ، ذلك انه لم يكن رجلا نبيل المحتد ، كما انه لم يكن عظيم الثراء ، فقواته لم تكن كبيرة العدد ، بل حوت عددا ضئيلا من الفرنجة ، ومهما يكن الحال ، فإن بوهيموند كان في طبيعته مصادعا كذابا ، وكان الامبراطور الكسيوس قد أمر بعد انتهاء الاحتفال ، بغرفة من غرف القصر ، محددة الأطراف ، وفرشت بجميع أنواع الأشياء الثمينة والنخائر من : ملابس ، وذهب ، وفضة ، ونقود ، وأشياء أخرى كلها ذات قيمة كبيرة ، وقد بعثت هذه الأشياء في الغرفة ، فملات المكان وغطته تماما ، إلى حد انه كان من المحال على أي انسان أن يمشي بها ، وأمر الامبراطور رجلا أنابه عنه أن يري بوهيموند هذه النخائر ، وطلب منه أن يفتح ابواب الغرفة بصورة مفاجئة ، ولقد تولت بوهيموند الدهشة ، وصعق لدى رؤيته لهذا المشهد ، فقال على الفور : « لو أنني امتلكت مثل هذه الثروات لتمكنت من أن أغدو سيدا لكثير من البلدان » ، فأجابه الرجل : « كل هذا هو اليوم لك ، وهو هدية مقدمة من الامبراطور ، وطار بوهيموند فرحا لدى سماعه ذلك ، وقام بعدما أبدى تقبله لهديته ، وتقديمه شكره بمغادرة المكان والذهاب إلى ماواه لينال قسطا من الراحة ، ومع هذا فإنه عندما حملت هذه الأشياء إليه ، ورغم ما سبق له وأبداه من اعجاب ، تظاهر بتغيير رأيه ، فخاطب الخادم الذي حمل إليه الأشياء بقوله : « لم أكن أظن انه ستوجه إلي إهانة مثل هذه من قبل الامبراطور ، خذهم بعيدا وأعدهم إلى مرسلهم » ، وكان الكسيوس معتادا على تصرفات اللاتين ، عارفا بأخلاقهم لهذا ردد القول الدارج : « يكدر هو يكدر على رأسه » ، وسمع بوهيموند هذا القول ، ولهذا عندما شاهد الخدم يعدون ويشرعون بجمع الهدايا بكل عناية لاعادتهم ، غير رأيه مجددا ، وعوضا عن أن يرسلهم وهو مغضب ، ابتسم لهم ، وتصرف كالحرباء التي تغير لونها كل لحظة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند منافقا سريعا التراجع حسب الظروف ، وقد فاق جميع اللاتين الذين مروا بالقسطنطينية في ذلك الحين خداعا

وشجاعة ووقاحة ، وكان في الوقت نفسه والحال اقلهم ثروة ، واضعفهم موارد ، ومع ذلك كان اعظمهم في صنع المساويء والشور ، وبالنسبة لسرعة التغيير ، فقد فعل ذلك بشكل الي ، وهذه عادة جميع اللاتين ، لذلك لم يكن امرا غريبا او مدهشاً انه سر سرورا بالغاً بأخذة الاموال التي سبق له ان رفض تسلمها ، فهو عندما غادر بلاده كان رجلا مفلسا ليس لديه أية املاك مطلقا ، وقد تظاهر انذاك بأنه زاهب للتعبد عند القبر المقدس ، لكنه كان في الحقيقة يبتغي ان ينال السلطة لنفسه - او بالحري الاستيلاء على الامبراطورية الرومية ، إذا كان ذلك ممكنا - كما اراد أبوه واستهدف من قبل ، فهو - كما يقال - كان على استعداد لأن يفعل أي شيء ، لكن ذلك احتاج منه أموالا كثيرة ، وكان الامبراطور يعرف طباعه ونفسيته التي لا تعرف الرضى ولا الاستقرار ، ويعرف مكره ، ولهذا عمل ببراعة على ابعاده عن كل شيء يمكن أن يساعده على تنفيذ مآربه ، ولهذا الأسباب حدث أنه عندما طلب بوهموند أن تتم تسميته لمنصب « دمستق الشرق » لم يكتف الامبراطور برفض طلبه هذا ، بل لم يبد حتى استغذاه لسماع ذلك ، ذلك ان الكسيوس كان يخشى أنه ما أن يملك بوهموند السلطة حتى يقدم على استخدامها لاختضاع بقية الأمراء لسلطانه ، وجعلهم يتبعون السياسة التي يختارها ، وفي الوقت نفسه ، وحتى لا يظن بوهموند بأن خطه مكشوفة ، وعده الامبراطور ومناه بأمان فارغة قائلا : « لم يحن الوقت بعد لمثل هذا ، لكن مع نشاطك واخلصك لن تنتظر طويلا حتى تنال الشرف » .

وبعدما تحدث الامبراطور طويلا مع قادة الفرنجة ، مبديا لهم مشاعر الود والصداقة ، عن طريق الهدايا والخلع ، جلس في اليوم التالي على عرشه الامبراطوري ، وبعث فاستدعى بوهموند وبقية الأمراء ، وحذرهم من الأشياء التي يمكن أن تواجههم اثناء رحلتهم ، وقدم لهم نصائح جمة ، واعطاهم تعليمات حول الطرائق التي جرت عادات التركمان على استخدامها اثناء القتال ، وعلمهم كيف يصفون صفوفهم ويعبؤونها للمعركة ، وكيف ينصبون

الكمانن ، ونصحهم بعدم مطاردة الأعداء بعيدا عندما يفرون ، وقد استطاع الامبراطور باعتماده لهذه الوسائل من مال ونصائح أن يلين من حدة طباعهم ، ثم اقترح عليهم أن يقوموا بعبور المضائق .

وأبدى الامبراطور المزيد من الاهتمام والعاطفة تجاه واحد من قائد الفرنجة ، وهو ريموند كونت سان جيل (٢٦) (صنجيل) وذلك لعدة اسباب ، منها انه كان عالي الثقافة ، وله سمعة ممتازة ، وحياسة نقية ، ثم لمعرفة الامبراطور الواضحة للمدى الواسع الذي قد ريموند به الصدق ، فقد كان في جميع الظروف والأحوال يحترم الصدق ، ويقدره فوق كل شيء آخر ، وفي الحقيقة بز صنجيل جميع اللاتين ، وفاقهم بجميع الصفات ، وكان بالنسبة لهم كالشمس بالنسبة للنجوم ، ولهذا احتفظ به الكسيوس بعض الوقت ، وهكذا كان بعدما ودعه الآخرون ، وشرعوا برحلتهم بعبور المضائق إلى داماليون (٢٧) . وعندما وجد نفسه وقد تحررت من مضايقات وجوبهم بعث يستدعيه في عدة مناسبات وأوضح له بشكل أكثر تفصيلا لون المخاطر التي على الفرنجة توقعها أثناء زحفهم ، وبين له بكل وضوح شكوكه حول خططهم ، وفتح أثناء هذه المحادثات ، حول هذا الموضوع ، قلبه للكونت ، وأطلعته على خبيثة نفسه ، وحذره دائما وأبدا من بوهيموند ، وطلب منه أن يبقى يقظا تجاه أضاليله حتى إذا ما حاول أن يخرق المعاهدة يمكنه تعويقه وتعطيل خطته ، وأوضح صنجيل بدوره أن بوهيموند قد ورث المكر والخداع عن أبائه - وذلك كله نوع من الوراثة - وقال : « إنه سيكون نفطا من المعجزات إذا احتفظ بوهيموند بأيمانه ، أما بالنسبة لي فإنني سأبذل جهدي وأفعل كل ما يمكنني فعله لمراعاة أوامرك » ، وقام بعد هذا بتوديع الامبراطور ، وذهب بغية الالتحاق ببقية جيوش الفرنجة (٢٨) .

وكان الكسيوس يرغب بدوره في المشاركة أيضا في الحملة ضد البرابرة ، لكنه خشم من الأعداد الهائلة للفرنجة ، ورأى أنه من الحكمة أن ينتقل إلى بيليكانيوم ، ليقوم مركز قيادته الدائم على مقربة من نيقية (٢٩) حيث يمكنه الحصول على معلومات متواترة بلا

انقطاع حول مسيرة زحف الفرنجة وفي الوقت نفسه حول نشاط التركمان خارج هذه المدينة [نيقية] و حول أوضاع السكان و أحوالهم في داخلها ، و رأى أنه من العار بالنسبة له إذا لم ينل - في هذه الظروف - بعض النجاحات العسكرية ، و ذلك عندما تحين الفرصة ، و خطط للاستيلاء على نيقية بنفسه ، و كان يفضل أن يتم ذلك بتسلمها من الفرنجة (تبعاً لشروط الاتفاقية التي أبرمت معهم) ، و قد احتفظ الامبراطور بهذه النية لنفسه ، و كان ذلك معروفاً من قبله فقط في جميع الأحوال و الأوضاع و مهما كانت الاسباب ، كل هذا على الرغم من انه عهد بهذه المهمة الى بوتومايتز (موضع ثقته الوحيد) و قد أوعز إلى بوتومايتز بأن يعمل على استمالة البرابرة في نيقية إليه ، بمختلف الوعود و المواثيق بتأمينهم على أنفسهم ، و بإعلامهم أنه ليس أمامهم سوى هذا المخرج ، أو التعرض للتشتت أو حتى للهلاك و القتل - إذا ما تسلم الفرنجة المدينة - و كان الامبراطور واثقاً تمام الثقة بإخلاص بوتومايتز ، و كان يعرف أنه في مثل هذه الحالات سيبدل جميع جهوده .

إن تاريخ الوقائع التالية سيتم عرضه بشكل متسلسل منذ البداية .

والتقى بوهوموند ببقية الأمراء و تجمعوا في مكان واحد عزموا على الابحار منه إلى كيبوتوز ، و انتظروا جميعاً و معهم غودفري و وصول صنجيل ، الذي كان قادماً بصحبة الامبراطور ، و تقرر الآن ، و قد اتحدت قواهم جميعاً ، أخذ الطريق نحو نيقية ، و كانت أعدادهم كبيرة جداً ، لذلك تعذر الانتظار مدة أطول لنقص المؤن ، و لهذا وزعوا جيوشهم إلى قسمين : قسم زحف عبر بيثينيا و نيقوميديا نحو نيقية ، و عبر القسم الآخر المضيق إلى كيبوتوز ، و تجمعوا في تلك البقعة فيما بعد ، و لما وصلوا إلى نيقية على هذا الشكل ، انقسموا إلى مجموعات ، عهد إلى كل منها بالزحف و الدخول بالقتال ، و قامت الفكرة على أساس الهجوم على الأسوار حسب هذه المجموعات بالتناوب ، ذلك أن التنافس بين الفرق

المختلفة سيكون كبيرا ، وسيباشر الحصار بشدة أكبر ونشاط اعظم ، وتركت البقعة التي جعلت من نصيب صنجيل خاوية حتى ساعة وصوله .

ووصل في تلك الأثناء الامبراطور الى بيليكاتوم ، وعينه على نيقية (كما سبق لي واوضحت) وبعث البرابرة - في الوقت نفسه - من داخل المدينة بالرسائل المتوالية الى السلطان (٣٠) يسألونه النجدة ، لكنه ظل حيث هو يضيع الوقت ، ومضى الحصار ، واستمر لأيام عديدة ، وامتد من شروق الشمس حتى مغيبها ، وصارت احوال (التركمان) قاسية جدا ، وتوقفوا عن القتال ، وقرروا أنه خيرا لهم الاتفاق مع الامبراطور من الوقوع بيد الفرنجة ، وفي ضوء هذه الأوضاع ، استدعوا اليهم بوتومايتز ، الذي وعدهم ، عبر سبل غير منقطع من الرسائل بأن هذا الشرط او ذاك الامان المرغوب به ، سيجري منحهم اياه الامبراطور اذا ما وافقوا على التسليم له دون سواه ، كما أفصح لهم الآن بتفاصيل أكبر عن نوايا الامبراطور الطيبة تجاههم ، وقدم لهم عهدا مكتوبا ، ولهذا استقبل اثر هذا من قبل التركمان استقبالا طيبا ، ذلك انهم كانوا في حالة قنوط في وقتهم ضد قوة عدوهم الطاغية ، وراوا من الحكمة ان يتنازلوا طواعية للامبراطور اليكسيوس ، وينالوا منحه وهداياه بمعاملة مشرفة ، من ان يصبحوا ضحايا للحرب من غير هدف ، ولم يمض يومان على وجود بوتومايتز في ذلك المكان ، حتى وصل صنجيل عازما على الهجوم على الأسوار من غير تأخير ، وكان لديه معدات للحصار جاهزة لانجاز المهمة ، وانتشرت في الوقت نفسه العزيمة والشجاعة والأمل في نفوس التركمان ثانية ، فأقدموا في الحال على طرد بوتومايتز .

اما مايتعلق بالسلطان فانه بعث بقسم من قواته لتراقب هجوم الفرنجة مع اوامر بقتالهم عند التقائهم بهم ، وجرت مشاهدتهم عن بعد من قبل رجال صنجيل ، وحدث اشتباك لكنه جاء سيء النتائج بالنسبة للتركمان ، وذلك ان بقية الأمراء مع بوهموند قام كل منهم

لدى سماعه بخبر الاشتباك باختبار مائتين من رجاله ، وبعثهم للانجاد ، وقد شكل هؤلاء جيشا معتبرا ، فاجأ هؤلاء البرابرة وطاردوهم حتى حلول الظلام ، وكان السلطان بعيدا عن مسرح هذه الانتكاسة ، ومع هذا فعندما جاء صباح اليوم التالي كان على تعبئة كاملة هو وجميع اتباعه في المنبسط الكائن خارج أسوار نيقية ، وسمع الفرنجة بهذا ، فحملوا أسلحتهم وانقضوا على أعدائهم مثل الأسود ، وحدث قتال عنيف ومرير ، ومع أن القتال لم يكن حاسما بالنسبة لأحد الطرفين ، إلا أن التركمان لانوا بالفرار مع غياب الشمس ، وبهذا انتهى حلول الظلام والقتال وسقط العديد من القتلى بين الطرفين ، وأصيب معظم المقاتلين بالجراح ، وهكذا ربح الفرنجة نصرا رائعا ، وحمل الفرنجة عددا كبيرا من رؤوس التركمان على أسنة رماحهم ، وعادوا بها وكأنها رايات محمولة فوق رؤوسهم ، حتى يراها البرابرة عن بعد ، بعد ما شاهدوا ما حدث ، وبذلك يحل الهلع في قلوبهم ، وتقل رغبتهم في متابعة القتال .

هذا ما كان بالنسبة لأفكار الفرنجة وأعمالهم ، ولقد لاحظ السلطان مدى عدد الفرنجة الكبير ، وأدرك بعد هذا الاشتباك مدى ثقتهم بأنفسهم وشجاعتهم ، لذلك أخبر التركمان داخل نيقية وقال لهم : « اعملوا منذ الآن وصاعدا ماترونه مناسبا » ، وكان يعرف مسبقا بأنهم كانوا يفضلون تسليم المدينة الى الكسيوس من أن يقعوا أسرى في قبضة الفرنجة .

وفي هذه الأثناء كان صنجيل يقوم بالعمل على انجاز المهمة التي عهدت اليه ، فشرع ببناء برج خشبي مستدير الشكل مغطى من داخله وخارجه بجلود الأبقار ، ومملوء في وسطه بالممرات والمتعرجة ، وعندما انتهى من تشييده قربه من برج غونتاز (٣١) ، وملا برجه المتحرك هذا بالعساكر الذين كان عليهم فتح ثلثة في السور ، ووضع فيه أيضا عددا من الاختصاصيين بفتح الأنفاق ، وكان معهم ادوات فولاذية للعمل على لغم السور من

الاسفل ، ففي الوقت الذي كان يشتبك فيه الجند الذين في الطبقة العليا من البرج الخشبي مع المدافعين على شرفات السور ، كان الذين في اسفل البرج الخشبي يعملون على اقتلاع حجارة السور ، وكانوا كلما اقتلعوا حجرة وضعوا مكانها عارضة من الخشب ، وجرت العادة ان يستمروا في عملهم هذا حتى اذا شعروا بانهم خرقت السور ، وذلك بمشاهدة شعاع من النور من الجانب الآخر ، فهنا كانوا يلقيون النار بين الأخشاب المحشوة ويحرقونها ، والذي حدث انهم بعدما أحرقت الأخشاب بقي برج غونتاز اكثر تماسكا من ذي قبل ، محافظا بصموده هذا على شرف بانيه وسمعته اكثر من ذي قبل .

وكانت بقية أجزاء السور انذاك محاطة بطوق من كباش الخرق والدبابات ففي مثل ملح البرق - كما يقال - كان الخندق الخارجي مردوما ، وقد ملئ بالتراب وصار مستويا على الطرفين ، وبذلك تمكنوا من متابعة الحصار على خير مايرام .

وحكم الامبراطور الذي اتيح له تفحص نيقيه فحصا دقيقا في مناسبات عدة ، حكم بأنه من غير الممكن الاستيلاء عليها من قبل اللاتين ، مهما كانت اعدادهم كبيرة وقواهم طاغية ، وقام من جانبه ببناء عدد من الآلات الواقية بأشكال عدة ، غير معروفة أو معتادة ، قام هو بتصميمها ، مما ادهش كل انسان ، وبعث بهذه الآلات الواقية الى امراء الفرنجة ، فهو كما سلفت الاشارة كان قد اجتاز المضايق مع قواته المتوفرة ، وكان معسكرا في بيليكانون على مقربة من ميسامبيلوي ، حيث بني في الايام الخوالي معبد كرس على اسم « جورج » الشهيد الكبير .

وكان لدى الكسيوس الرغبة في الذهاب برفقة الحملة ضد التركمان الكفار ، لكنه اقلع عن المشروع بعدما ناقش الموضوع وتمعن به ، ووازن بين الفوائد والمضار : فقد لاحظ ان الجيش الروماني لاحول له ولاطول ، صغير العدد بالمقارنة مع التعداد

الهائل لحشود الفرنجة ، وكان يعرف من طول التجربة كيف انه لا يمكن الوثوق بالفرنجة ، لانهم كانوا جميعا رجالا لا يعرفون الاستقرار ، الخيانة طبع لهم وتقاذفهم هنا وهناك مثل تيار يوربيوس (٣٢) من غاية الى غاية اخرى ، ولحبهم للمال وجشعهم كانوا دائما على استعداد لبيع زوجاتهم واطفالهم حتى اخرهم .

ان هذه النوعية من الاسباب هي التي منعتهم من المشاركة في الحملة ، ومع هذا وعلى الرغم من انه وجد ان حضوره ليس مناسباً ، فانه قدم كل ما يمكن من المساعدات للفرنجة ، كما لو انه كان معهم فعلاً ، وجعلت متانة اسوار نيقية الامبراطور يتأكد ان المدينة لا يمكن قهرها ، وان اللاتين لا يمكنهم الاستيلاء عليها ، ولدى سماعه بتقارير فيها ان السلطان كان يقوم بادخال قوات كبيرة الى المدينة ، مع امدادات الاطعمة عبر البحيرة (٣٣) ، من غير أية صعوبات ، وان حركة الذهب والاياب الى المدينة مستمرة ، قرر السيطرة على البحيرة والتحكم بها ، فأمر ببناء قوارب خفيفة قادرة على العوم فوق مائها ، وحملت هذه القوارب على ناقلات ، ثم القيت في اليم من جانب كيوس ، وشحنت بالجند بكامل اسلحتهم تحت إمرة مانويل بوتومايتز ، واعطاهم عددا من الرايات اكبر من المعتاد كي يبدوا من بعد وكانهم اكثر عددا مما هم عليه حقيقة ، وهذا ما فعله ايضا بالنسبة لاعداد الأبقاق والطبول .

ثم صرف بعد هذا اهتمامه نحو البر فبعث بكل من تاسيوس وزخاس (٣٤) مع قوة مقدارها الفان من الرماة ، ووجههم نحو نيقية ، وكانت الأوامر الصادرة اليهما جمع كل مالدتهما من شباب وحمله على ظهور البغال ليقوموا بالاستيلاء على حصن القديس جورج ، وكان على العساكر ان يترجلوا من على خيولهم على مسافة مناسبة من اسوار نيقية ، ثم الزحف على اقدامهم نحو برج غولتاز ليتخذوا مواقعهم هناك ، وينضموا بعد ذلك الى صفوف اللاتين و العمل تحت اوامرهم في الهجوم على الاسوار .

ونفذ تاسيتوس الأوامر ، وأخبر الفرنجة بوصوله مع جيشه ، حيث لبس كل واحد منهم درعه ، وهجموا وأصواتهم مرتفعة تردد شعارات القتال ، وأطلق رجال تاسيتوس رشقات غزيرة من الذناب نحو الأسوار ، بينما تابع الفرنجة العمل لفتح ثلثة في الأسوار ، واستمروا في قذفها بالحجارة من مناجيقهم .

وأصيب العدو بالهلع لدى رؤيته الأعلام الامبراطورية والأبواق ، التي كانت مع بوتومايتز الذي اختار تلك اللحظة لاخبار التركمان بعود الامبراطور ، وضاق الحال بالبرابرة الى حد أنهم لم يعودوا يتجرؤون على النظر الخاطف من اعالي نيقية ، وفقدوا جميع الآمال بوصول السلطان ، لذلك قرروا أنه من الأفضل تسليم المدينة ، والشروع بالمفاوضات من أجل ذلك مع بوتومايتز وقام بوتومايتز ، بعد تقديم التحيات المعتادة ، باطلاعهم على صك الأمان الذي حمله اياه الكسيوس حيث لم يمنحوا فيه بوعده الأمان على ارواحهم والعفو عنهم فحسب ، بل بجوائز مجزية وأعطيات سخية من المال ، وبمعاملة مشرفة لكل من اخت السلطان وزوجته (٣٥) ، وكانت هذه الوعود والأعطيات ستمنح الى جميع البرابرة في نيقية من غير استثناء.

وبناء على وثوق أهل المدينة بعود الامبراطور ، سمحوا لبوتومايتز بالدخول اليها ، وما ان فعل ذلك حتى بعث برسالة الى تاسيتوس يقول فيها : « الفريسة هي الآن بأيدينا ، ينبغي الاعداد لتسليق الأسوار ، ويجب اشراك الفرنجة بهذه المهمة ايضا ، لكن لاتدع لهم شيئاً سوى القتال حول الشرافات ، طوق المدينة من جميع الجهات حسب الضرورة ، وابدأ عملك مع شروق الشمس » .

وكان هذا في الحقيقة نوعاً من التمويه والخداع ، لجعل الفرنجة يعتقدون بأن المدينة قد سقطت الى بوتومايتز من خلال أعمال القتال ، وكانت عملية الخداع المثيرة هذه ، التي خطط لها الكسيوس بكل عناية ، تحتاج الى تغطية وسستر ، وكانت رغباته

تقضي بالألا يعلم الفرنجة بأمر المباحثات التي كان يجريها

بوتومايتز ، ومع اشراقه شمس صباح اليوم التالي ، دوى نفير المعركة من الجانبين من خارج المدينة حيث الفرنجة الذين اندفعوا بشدة في عملية الحصار ، ومن داخل المدينة حيث الفرنجة الذين اندفعوا بشدة في عملية الحصار ، ومن داخل المدينة حيث بوتومايتز ، وقد ارتقى اعالي السور ، ووضع هناك الصولجان والعلم الامبراطوريين ، واعلن سقوط المدينة بواسطة البوق والنفير ، ودخلت القوات الرومانية - بهذه الوسيلة - جميعها الى نيقية ، ومع هذا ، وبناء على المعرفة التامة بقوة الفرنجة الكبيرة ، وبطباعهم القاسية وسرعة اثارتهم وتقلبهم ، فقد قدر بوتومايتز انه قد يتيسر لهم الاستيلاء على الحصن اذا ماحصلوا في داخل المدينة ، يضاف الى هذا ان رجال الحامية التركمانية كانوا قادرين - اذا ما رغبوا - على تقييد رجال قواته بالسلاسل وقتلهم ، ذلك ان اعدادهم ، بالمقارنة مع اعداد الرومان ، كانت اكبر بكثير ، لهذا سارع فاستحوذ على مفاتيح باب المدينة الوحيد ، فقد وجد انذاك باب واحد مفتوح لدخول الناس وخروجهم ، وكانت بقية الأبواب مغلقة خشية من الفرنجة الذين كانوا وراء الأسوار ، والآن وقد تملك مقاليد هذا الباب الوحيد ، قرر على الفور انقاص تعداد قادة الحامية التركمانية ، في سبيل تجنب وقوع كارثة كبرى ، لذلك استدعاهم اليه ، وأشار عليهم بزيارة الامبراطور ، وذلك اذا كانوا يرغبون بتسليم كميات كبيرة من المال منه ، وأن يخلع عليهم ، وأن تسجل اسمائهم في قائمة الاعطيات السنوية .

واقترح التركمان بهذا ، وفتحت البوابة في الليل ، واندفعوا منها جماعات جماعات مابين كل جماعة وأخرى بعض الوقت ، ليأخذوا عبر البحيرة المجاورة الى رودمير (البلغاري - ابن خالي) والى قوة موناستراس - النصف بيننطي - التي كانت متمركزة في حصن القديس جورج ، وقضت أوامر بوتومايتز بأن يتم توجيه

القادة التركمان مباشرة نحو الامبراطور ، فور وصولهم ودون أي تأخير خشية أن يجتمع تركمان مجموعة مامع تركمان مجموعة أخرى ثم سواها ممن جاء بعدها ، فيتآمروا لالحاق ضرر بالروم ، ولاشك ان هذا التدبير الحكيم ، يعود الى طول خبرة الرجل ، فما دام القادمون الجدد يرسلون فورا الى الكسيوس كان الروم في امان ، وليسوا معرضين لأي خطر مهما كان نوعه ، لكن عندما تغاضى رودمير ، وتقاعس موناستراس ، وتغافلا تعرض كل منهما للمخاطر من البرابرة الذين ابقوهم لديهم ، فلدى ازدياد تعداد التركمان خططوا للقيام بأحد عمليتين: إما مهاجمة الروم وقتلهم ، او اخذهم أسرى ، وحملهم الى السلطان ، وهذا ما اتفقوا عليه بصورة جماعية ، وأن هذه هي الفكرة الأكثر صوابا ، فهاجمهم ليلا ، واخذوهم أسرى ، واتجهوا بهم نحو قمة تل يدعى تل ازالا (٣٦) على بعد ثلاثمائة ذراع من أسوار نيقية ، وعندما وجدوا أنفسهم قد وصلوا الى هناك ، ترحلوا لراحة خيولهم ، ولما كان موناستراس نصف بيزنطي ، ويفهم لغة التركمان ، وكذلك رودمير ، فقد سبق له أن وقع أسيرا بيد التركمان منذ زمن طويل ، لذلك لم يكن غريبا على اللغة التركية ، وقد حاولا بكل ما أوتيا من قوة أن يقنعا أسريهم بالمحاجة قائلين: لماذا تريدون سقينا كأس الحمام ، دون أن تنالوا من ذلك أية فائدة لأنفسكم ، وذلك في الوقت الذي يتمتع فيه الآخرون جميعا من غير تمييز ، بالجوائز العظيمة من الامبراطور ، وسجلت أسماؤهم في قائمة الاعطيات السنوية ، انتم ستحرمون أنفسكم من جميع هذه الفوائد والمزايا ، فكروا الآن بالأمر ولا تكونوا حمقى ، خاصة وأنه بإمكانكم أن تعيشوا بأمان من غير أن يتدخل احد بشؤون حياتكم ، وأن تعودوا الى اوطانكم مثقلين بالثروات ، كما يمكنكم استحواذ اراضي جديدة ، لاتلقوا بأنفسكم بمثل هذه المخاطر المؤكدة فلربما ستواجهون الروم في مكائهم هناك - مشيرين الى الجداول الهابطة من الجبال ، ومنطقة المستنقعات - وإذا كنتم تودون أن تقتلوا أنفسكم ، وتفقدوا حياتكم مقابل لا شيء ، فهناك الاف من

الرجال ينتظرونكم ، ليس من الفرنجة والبرابرة فحسب ، بل من
حشود الروم .

والآن إذا وددتم سماع نصيحتنا ، أديروا رؤوس
خيولكم ، وتعالوا معنا الى الامبراطور ، ونحن نقسم بالله ، والله
على ما نقول شهيد ، ستنالون جوائز لا عد لها ولا حصر من بين
يديه ، ثم عندما تريدون مغادرته ، يمكنكم ذلك في اي وقت ، دون أن
يعيقكم عائق ، فأنتم رجال احرار ، واقنعتم هذه الحجج
التركمان ، وتم تبادل الايمان والعهود بين الطرفين ، حيث انطلقا
نحو الكسيوس ولدى وصولهم الى بيليكانوم ، استقبلوا جميعا
بابتسامة مشرقة (مع انه كان - في الحقيقة غاضبا على رودمير
وموناستراس) ، وأرسلا ساعته للراحة ، وفي اليوم
التالي ، تسلم جميع التركمان - الذين رغبوا في العمل في
خدمته - اعطيات كثيرة ، وأما الذين رغبوا بالالتحاق
بأوطانهم ، فقد تركوا ورغباتهم ، وهم أيضا لم يسافروا بجوائز
قليلة ، وانتقد فيما بعد الكسيوس بشكل حاد كل من رودمير
وموناستراس لغفلتها ، لكنه عندما لاحظ مقدار خجلهما ، غير
موقفه نحوهما ، وأظهر عفوه ببعض كلمات الارضاء والمصالحة .

ولنعد الآن الى بوتومايتز ، فقد رماه الامبراطور وعينه دوقا على
نيقية ، وبعدها فعل ذلك ، سأل الفرنجة أن يأذن لهم بالدخول الى
المدينة ، ذلك أنهم رغبوا بزيارة الكنائس المقدسة هناك ، والتعبد
بها ، وكان بوتومايتز - كما اشرت من قبل - يلم تمام الالمام
بأحوال الفرنجة ، ويدرك أوضاعهم ، لذلك رفض السماح لهم
بالزيارة جميعا دفعة واحدة ، و اكتفى بفتح الباب والسماح بالزيارة
لجماعات يتألف كل منها من عشرة .

وكان الامبراطور ما يزال في احواز بيليكانيوم ، كما كان يود أن
يقوم الأمراء الذين لم يؤدوا قسم الولاء له بعد ، بتأدية ذلك
شخصيا ، وكتب تعليماته حول ذلك وبعث بها الى بوتومايتز لينصح

الأمراء بعدم السفر نحو أنطاكية قبل تقديم الولاء للامبراطور ، وأن ذلك سيكون فرصة لتلقي هدايا أعظم ، ولدى السماع باسم المال والهدايا كان بوهيموند أول من أطاع نصائح بوتومايتز ، وتشاور في الحال معهم من أجل الرجوع ، فهو - أي بوهيموند - كان فيه جشع كبير للمال وشره بلا حدود.

واستقبلهم الامبراطور بحفاوة كبيرة وابهة ، وكان واسع النشاط في شرح ما ينفعم ، ودعاهم - أخيرا - اليه ، وخاطبهم بقوله: « تذكروا اليمين الذي أقسمتموه لي ، وإذا كنتم فعلا لا ترغبون الحدث به ولا تنوون ، انصحو كل واحد ممن تعرفونه ، لم يأخذ على نفسه القسم بعد ، أن يعجل بالقيام بذلك ، واستجابوا له ، فأرسلوا بالحال وراء هؤلاء الرجال ، الذين استجابوا جميعا وأدوا يمين الولاء فيما عدا تانكرد ، ابن أخت بوهيموند - فقد كان رجلا له روح استقلالية ، يتفاخر بأن في عنقه ولاء رجل واحد ، هو بوهيموند ، وهو يأمل بالاحتفاظ بهذا الولاء حتى يوم موته ، وتعرض تانكرد لضغط الآخرين ، بما فيهم أقرباء الامبراطور ، لكن من غير فائدة ، فقد ركز نظره على السراق الذي جلس فيه الامبراطور لأكرام الأمراء (وهو سراق لم ير أحد واحدا باتساعه) وقال: « لو ملأتم هذا السراق مالا وأعطيتموه لي مع جميع المبالغ التي أعطيت الى بقية الأمراء ، عندها فقط يمكن أن أقسم يمين الولاء و هنا قام باليلوغوس وقد ضاق ذرعا بما تعرض له الامبراطور ولم يتحمل عربدته وتبجحاته ، فقام بدفعه بحنق ، وانقض تانكرد عليه مغضبا ، مما حمل الكسسيوس على النهوض من على عرشه ، وسبب تدخل بوهيموند ، حيث قام بتهدئة تانكرد مخبرا اياه بأنه كان من الخطأ أن يتصرف هكذا في حضرة الامبراطور من غير مراعاة له ، وخجل تانكرد من فعلته ، وبدا كأنه رجل مخمور أفقده السكر وعيه وتوازنه أمام باليلوغوس ، وسبب هذا ، مع مناقشات الآخرين اقناعه ، وحمله على أخذ يمين الولاء للامبراطور.

وعندما انصرف الجميع من حضرة الامبراطور ، أمر الكسيوس تاتيشوس (وكان انذاك قائدا عالي المرتبة) وأوعز الى القوات التي كانت تحت قيادته ، بالالتحاق بالفرنجة ، وكانت مهمة تاتيشوس مساعدتهم وحمايتهم في كل مناسبة ، وأن يتسلم منهم كل مدينة يستولوا عليها ، إذا ما يسر الرب لهم ذلك .

واستأنف الفرنجة زحفهم ثانية ، في اليوم التالي بساتجاه انطاكية ، ورأى الكسيوس أنه ليس من الضرورة أن يذهب جميع الفرنجة برفقة الأمراء ، ولهذا أشار على بوتومايتز أن يقوم باستئجار جميع المتخلفين ، ليستخدمهم في حماية نيقية ، ووصل تاتيشوس ومع قواته وجميع الأمراء وبصحبتهم حشودهم التي لا تحصى الى ليوكاي في مدة يومين ، وهنا أصبح بوهموند - بناء على طلبه - مسؤولا عن قيادة طلائع القوات ، بينما زحف البقية في رتل واحد ببطء ، وعندما رأى التركمان بوهموند يزحف بشيء من السرعة فوق سهل دوريليوم (٣٧) خيل اليهم أن الفرصة قد تهيأت لهم لضرب جيش الفرنجة ، وانقضوا عليه فورا غير عابئين به .

ونسى لاتينوس ، ذلك الأحقق البليد ، الذي تجرأ على الجلوس على العرش الامبراطوري ، نسى نصائح الامبراطور ، وركب بكل تهور وحماسة أمام البقية (كان على طرف صفوف قوات بوهموند) ، وقد قتل أربعون من أتباعه ، وأصيب هو نفسه بجرح بليغ ، وقد فر من المعركة ، وعاد مسرعا الى وسط الجيش ، وكان عمله هذا شهادة ملموسة على حكمه الكسيوس وصحة آرائه ، لكنه لم يعترف بذلك بكلماته ، وعندما رأى بوهموند شدة هجوم التركمان ، أرسل يطلب النجدة ، ووصلت اليه النجدة بسرعة ، وغدت الملحمة منذ تلك الساعة قتالا محموما مريرا ، وقد انتهى ذلك القتال العنيف بنصر الروم والفرنجة .

وجرى بعد هذا متابعة الزحف ، إنما روعي الآن أن تكون كل فرقة على اتصال بالفرقة الأخرى ، وقد التقوا عند هرقلية بالسلطان

« تنيسمان وحسن (٣٨) » وكان يقود بمفرده ثمانين الفاً من الرجال كل منهم شاكى السلاح ، ووقع قتال شديد بين التركمان والفرنجة ، ليس بسبب الأعداد الكبيرة التي تورطت بالقتال فحسب ، بل لثبات كلا الطرفين وصبرهما ، وكان التركمان يقاتلون باندفاع شديد ، وفي المقابل كان بوهيموند يقود ميمنة الفرنجة ، ولما لاحظ هذا الوضع ، انفصل عن بقية الجيش ، واندفع منقضاً على قلج أرسلان « مثل أسد كان يجرب قوته كلها » - حسب قول الشاعر (٣٩) - ، وكان لهذا تأثير مريع على الأعداء ، فلانوا بالفرار ، وتذكر الفرنجة وصايا الامبراطور ، فلم يقوموا بمطاردة الأعداء بعيداً ، بل احتلوا خندق التركمان واستراحوا هناك لوقت قصير ، ثم اصطدموا ثانية بالتركمان على مقربة من اغوستوبولس ، واشتبكوا معهم ، وهزمهم مجدداً بشكل ساحق ، واختفى إثر هذا البرابرة ، وتفرق الناجون منهم من القتال في جميع الاتجاهات ، و يلاحظ بالنسبة للمستقبل أنه لم يعد لديهم المقدرة حتى على النظر الى وجوه اللاتين.

وتسأل عما حدث بعد هذا ، الذي حدث أن اللاتين مع الرومان وصلوا الى انطاكية عبر ما يدعى « الطريق السريع » وقد تجاهلوا المنطقة على الجانبين وأهملوها ، وقاموا بحفر حفرة كبيرة ، على مقربة من أسوار المدينة ، وأودعوا فيها أوعيتهم وحاجياتهم ، ثم بدأ حصار انطاكية ، واستمر هذا الحصار لمدة ثلاثة أشهر قمرية (٤٠) ، وضاق التركمان بالأحوال الصعبة التي وجدوا أنفسهم فيها . وبعثوا برسالة الى سلطان خراسان يطلبون منه انجادهم بما يلزم من الرجال لمساعدتهم في الدفاع عن أهل انطاكية ، وطرد المهاجمين اللاتين المتولين لحصارهم ، وحدث أن كان واحد من الأرمين (٤١) مسؤولاً عن واحد من أبراج المدينة ويتولى شؤون الدفاع عن جزء من السور كان قد عهد الى بوهيموند بمهاجمته ، واعتاد هذا الرجل على الانحناء من فسوق السور ، وتمكن بوهيموند عن طريق لطيف العبارات والاطراء والوعود الخلافة والضمانات ، أن يقنعه بتسليم البلد اليه ، ووعده

الارمني بقوله : « متى وددت ، اعطني من الخارج اشارة سرية ، وانا ساتخلى لك حالا عن هذا البرج الصغير ، وما عليك الا التاكّد من استعدادك ، وكذلك جميع الرجال الذين في خدمتك ، وهيء السلالم واجعلها جاهزة للاستخدام ولا تكن وحدك مستعدا ، بل جميع رجالك وهم في السلاح الكامل ، حتى عندما يراكم التركمان على سطح البرج ، وانتم تصرخون صرخات حربكم ، فإنهم سيفرون هلعين » .

واحتفظ بوهيموند بخبر هذه الاعدادات لنفسه ، ووصل الأحوال على ماهي عليه رجل يحمل اخبارا فيها بأن قوات كبيرة من المسلمين ، حان وقت وصولها القادمة من خراسان ، وانها ستحارب الفرنجة ، واسم قائدها كربوقا (امير الموصل) .

وعلم بوهوموند بهذا ، ولما كان لا يرغب بتسليم انطاكية الى تاتيشوس (كما كان يفترض عليه ان يعمل لو اراد الا يحدث بايمانه للامبراطور) ويريدها لنفسه ، فقد ابدع خطة شيطانية لابعاد تاتيشوس طواعية من قبل نفسه ، فقد دنا منه وقال : « بودي ان ابوح لك بسر ، لانني اجد نفسي مسؤولا عن سلامتك ، لقد وصل تقرير مزعج جدا الى مسامع الأمراء ، بأن السلطان بعث بهؤلاء الرجال من خراسان ضدنا ، بناء على طلب من الامبراطور ، ويعتقد الأمراء بصحة هذه الرواية ، وهم لهذا يتأمرون لقتلك ، والان لقد قمت بما هو متوجب علي لتحذيرك ، إن الخطر وشيك ، والبقية عليك ، فاختر ماتراه مفيدا لك ، وفكر بأمر حياتك وحياة رجالك » .

وكان تاتيشوس يواجه مصاعب اخرى غير هذه ، فقد كانت هنالك مجاعة كبيرة (بيع رأس الثور بثلاث قطع ذهبية) وكان يانسا من الاستيلاء على انطاكية ، لذلك غادر المنطقة ، وركب هو

ورجاله الرهمان السفن الراسية في مرفأ السويدية ، وأبحر الى قبرص.

و بعد مغادرته ، ظل بوهيموند محتفظا بسر وعد أنطاكية له ، و كان يخفي بنفسه أمالا كبيرة ، بالاحتفاظ بحكم أنطاكية لنفسه ، لذلك توجه الى الأمراء بقوله : « انكم ترون كم من الوقت امضيينا بين هذه الرزايا ، وحتى الآن لم نزل نجاحا ما ، والمتبقي هو الأسوأ ، فقد نصبح عما قليل ضحايا للمجاعة ، مالم نعمل شيئا مفيدا يضمن سلامتنا » وعندما سألوه : ماذا تقترح ؟ تابع كلامه قائلا : « لم يهب الله الانتصارات جميعها عن طريق السيف ، ولم يتم الوصول الى مثل هذه النتائج دائما من خلال المعركة ، فالذي لم يتم الحصول عليه من خلال الكفاح ، غالبا ماتم الحصول عليه بيسر من خلال المباحثات ، فغالبا ما اعطت التحركات الدبلوماسية مراحب افضل ، وعندى انه لمن الخطأ اضاءة الوقت من غير هدف ، علينا الاسراع للعمل على ايجاد طريقة معقولة و شجاعة نلقذ بها أنفسنا قبل وصول كربوقا ، وأنا اقترح ان يبذل كل منا المستطاع من مجهوده كيما يكسب او يستميل اليه واحدا من البرابرة القائمين على الحراسة ، وليجرب ذلك كل واحد منا في قطاعه ، واذا وافقتم على هذا ، فلتكن جائزة اول رجل ينجح في هذا السبيل ، أن يصبح حاكما للمدينة - أعني حتى وصول الرجل الذي سيعينه الامبراطور ليتسلمها منا ، وبالطبع من الممكن ان كل هذا لن يفيدنا في شيء » .

ذلك ان بوهيموند الذي تعشق السلطان ، واحب السلطة ، احب ذلك لنفسه فقط ولصنع الامجاد لها ، وليس لصالح اللاتين ومنفعتهم العامة ، ولم تخفق خططه ومؤامراته واعمال خداعه ، ونشر اخبار قصة ما حدث يوضح ذلك :

فقد وافق الامراء بالاجماع على خطته وانطلقوا نحو العمل ، ومع انبلاج نور الصباح مضى بوهيموند في الحال نحو ذلك البرج (٤٢) ، وقام الارمني بتنفيذ الاتفاق ففتح الابواب ، ومكن منه

بوهيموند ، فقفز الأخير بكل سرعة ونشاط يتبعه أصحابه ، وصعدوا الى قمة البرج بما أمكن من سرعة ، ورأى المهاجمون الفرنجة والمحاصرون التركمان كل من جانبه بوهيموند واقفا هناك على شرفة البرج ، وهو يأمر النفاار بضرب نفير المعركة .

لقد كان مشهدا خارقا للعادة ، فقد أصاب الهلع التركمان فتوقفوا عن القتال ، وفروا عبر الأبواب يذشدون السلامة خارج المدينة ، محاولين النجاة بدشاشة انفسهم ، وبقي هناك فقط حفنة من الرجال الشجعان في حراسة القلعة والدفاع عنها .

واقطفى الفرنجة خارج المدينة خطا بوهيموند فتسلقوا الاسوار بواسطة السلالم ، وتمكنوا بسرعة متناهية من الاستيلاء على المدينة ، وفي الوقت نفسه ، لم يضع تانكرد فرصته فقام على رأس فرقة كبيرة من الفرنجة بمطاردة الفارين من التركمان ، حيث قتل وجرح أعدادا كبيرة منهم ، وهكذا عندما وصل كربوغا على رأس الوفه المؤلفة من العساكر ، وجد الموقع قد سقط لتوه للأعداء ، فقام بحفر خندق أودع فيه معداته ، وأقام معسكره ، واستعد لحصار المدينة ، إنما قبل ان يبدأ الحصار ، قام الفرنجة بعدة اغارات ووقعت عدة معارك شديدة انتصر فيها التركمان ، فاضطر الفرنجة إثرها الى البقاء وراء أبواب المدينة معرضين للمخاطر من جهتين : من المدافعين عن القلعة (فالبرابرة ظلوا مسيطرين عليها) ومن التركمان من وراء الاسوار .

ومن جديد توجه بوهيموند ، الذي كان رجلا بسارعا يرغب أولا وقبل كل شيء في تأمين حكم انطاكية لنفسه ، توجه بالخطاب الى الأمراء قائلا: « لايصح أن يقاتل جميع الرجال على جبهتين ، اي يقاتلوا هم أنفسهم ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل في الوقت نفسه ، ينبغي علينا أن نقسم قواتنا الى قسمين غير متساويين ، لكن متعادلين مع الأعداء الذين يوجهونا ، ومن ثم

نشرع بالقتال ضدهم ، ستكون وظيفتي القتال ضد المدافعين عن القلعة ، هذا اذا وافقتم على ذلك ، وستكون مهام البقية التكفل بالتصدي للعدو من الخارج ، ومهاجمته بشكل عنيف .

ووافق الجميع على فكرة بوهيموند ، وقام هو على الفور ببناء سور مقابل للقلعة ، وبذلك عزلها تماما عن بقية انطاكية ، وعندما اكتمل بناؤه ، تحول هذا السور إلى خط حربي فعال ، وأنداك غدا بوهيموند أشبه بالمتحكم بها ، وراقبها بشكل مستمر من غير راحة ، واستمر يضغط بشدة على المدافعين عنها مستخدما كل وسيلة ممكنة ، وقد حارب بكل شجاعة ، واهتم كل واحد من بقية الأمراء اهتماما شديدا بالقطاع الذي عهد به إليه ، فدافعوا عن المدينة من جميع الجهات وتفحصوا الدفاعات وشرافات الأسوار للتأكد من أن البرابرة في الخارج لن يتمكنوا من تسلق الأسوار بوساطة السلالم ، وبالتالي لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة ، كما أنهم بعملهم هذا حالوا بين أي إنسان وبين الصعود إلى الأسوار من الداخل للاتصال بالأعداء ، والاعداد لعمل خياني .

وبينما كانت هذه الأمور جارية في انطاكية ، اهتم الإمبراطور شخصيا بتأمين المساعداة للفرنجة ، لكن النهب التام الذي لحق بالمدن الساحلية والمناطق المجاورة لها اعاقه على الرغم من تلفه الشديد ، فزاخاس كان قد استولى على سميرنا (٤٣) ، وجعلها كما لو كانت من أملاكه الخاصة ، واحتجز تنجري بيرمرس (٤٤) مدينة افسوس (٤٥) القريبة من البحر ، والتي بني فيها فيما مضى كنيسة كرست على اسم الرسول يوحنا عليه السلام ، واستولى الأمراء التركمان واحدا تلو الآخر على المراكز الحصينة ، وعاملوا المسيحيين معاملة العبيد ، ونهبوا كل شيء حتى إنهم استولوا على جزيرتي خيوس ورووس (في الحقيقة على بقية الجزر أيضا) وبنوا هناك عددا من سفن القرصنة ، ونتيجة لهذا رأى الامبراطور ضرورة الاهتمام أولا بالجانب البحري ، والتعجيل بمعالجة مسألة زاخاس ، وعليه قرر أن يركز قوة مناسبة على اليابسة مع اسطول

قوي ، وعهد إلى هذه القوى بمهمة ضد البرابرة ، ومنعهم من شن الغارات ، وكان - في الوقت نفسه - سيقوم هو بنفسه بقيادة بقية قواته نحو انطاكية ، حيث سيقا تل التركمان على الطريق كلما تها له ذلك ، وقام باستدعاء جون دوقاس - أخي زوجته - وعهد إليه بقيادة القوات التي حشرت من مختلف المناطق ، مع مايكفي من السفن ، ليقوم بحصار المدن الساحلية ، وأعطاه زاخاس التي كانت قد وقعت بين الأسرى الذين وجدوا في ذلك الحين في نيقية ، وكانت الأوامر المعطاة إلى جون تقضي بأن يعلن على الملا ، خبر الاستيلاء على نيقية ، وإذا لم يتم تصديقه ، يقوم بعرض السيدة التركمانية أمام أمراء التركمان والبرابرة الذين كانوا يعيشون في المناطق الساحلية ، وقد رجا من وراء عمله هذا ، أن يصدق الأمراء الذين كانوا مسيطرين على المناطق المذكورة ، عندما يرونها بأن المدينة قد سقطت فعلا ، وسيقومون بالتسليم من غير قتال ، بل من باب اليأس وانقطاع الأمل ، وهكذا توجه جون مزودا بشكل جيد بجميع أنواع المؤن ، هذا وسأبين فيما يلي عدد انتصاراته التي حازها في حروبه ضد زاخاس ، وسأقص أخباره وكيف تمكن من طرده من سميرنا .

وقام جون بوداع الامبراطور ، وغادر العاصمة ، وعبر عند ابيدوس ، وكان كاسياس قد جرى تعيينه قائدا للأسطول ، وعهد إليه بالشؤون البحرية العائدة للحملة ، وقد وعده جون بأنه إذا ماقاتل بشكل جيد ، سيقوم بتعيينه واليا على سميرنا نفسها (عندما يتم استردادها) مع جميع المناطق المجاورة لها ، وبينما أبحر كاسياس على رأس قواته البحرية ، بقي جون على اليابسة ، وقام بمماشاته عن قرب ، وقد شهد أهالي سميرنا وصول كاسياس وجون معا ، وقام جون بضرب معسكره على مقربة من الأسوار ، بينما قام كاسياس بإرساء سفنه في الميناء ، وكان الناس في سميرنا يعرفون خبر سقوط نيقية ، ولم تكن لديهم رغبة في القتال ، وقد فضلوا الشروع بالمفاوضات في سبيل الصلح ، ووعدوا بالتخلي عن المدينة ، وبتسليمها إلى جون بدون حرب وسفك دماء ، إذا ما أقسم

لهم بأنه سيدعهم يعودون إلى مواطنهم آمنين دون أن يتعرضوا لأذى ، ووافق دوقاس وأعطى وعده بأن مطالب زاخاس ستتفد كلها حرفيا ، وهكذا أدلى العدو سلما تسلقه كاسباس وبذلك غدا الحاكم الأعلى على سميرنا . ووقع في تلك الساعة حادث ، ساقوم الآن بروايته

عندما ترك كاسباس جون دوقاس ، جاء إليه واحد من أهالي سميرنا ، وتقدم إليه بشكوى ادعى فيها بأن واحدا من المسلمين السوريين قد سرق منه خمسمائة قطعة ذهبية ، وقرر كاسباس النظر في القضية ، وأمر أن يمثل الفريقان أمامه للمحاكمة ، وتم جر السوري جرا ، وجلب قسرا ، وبالقوة ، ولهذا خيل إليه أنه مأخوذ للاعدام ، فقام وهو يائس من الحياة باستلال خنجره وغرسه في بطن كاسباس ، ثم انعطف فطعن أخا الوالي في خاصرته ، وتبع هذا فوضى كبيرة ، وفر الرجل المسلم ، وهنا دخل بحارة الأسطول جميعا ، بما فيهم المجذفين ، المدينة بشكل فوضوي ، فذبخوا كل من وجدوه فيها من غير شفقة ، وإنه لمنظر مؤسف ، ففي غمضة عين ، تم قتل عشرة الاف .

وقد حزن جون دوقاس لمقتل كاسباس ، وقام مرة ثانية بصرف عنايته كلها ، لبعض الوقت ، لحل مشاكل سميرنا ، فدخل المدينة ، وتفحص دفاعاتها بشكل دقيق ، وتلقى معلومات دقيقة عن مشاعر أهاليها وأحاسيسهم ، واقتضت الحال ترشيح رجل شجاع للولاية ، ووقع اختيار جون على هيلاس ، الذي كان جنديا شجاعا ، ومرشحا مناسباً للوظيفة ، فعينه واليا جديدا .

وخلف جون جميع الأسطول في سميرنا لحمايتها ، وقام هو بالزحف نحو أفسوس ومعاه الجيش ، وكانت أفسوس آنذاك بيد تنجري بيرمس ومرقس ، وقد عرف العدو خبر اقترابه ، فقام بإعداد قواته ، وعباها بالسلاح الشاكي ، وصفها للمعركة في منبسط خارج المدينة ، ولم يضع جون لحظة واحدة ، بل ركب

ورجاله ، وحمل عليهم بصفوف منتظمة ، وتبع ذلك قتالا شديدا استمر سحابة النهار ، والتحم الطرفان بنزال لم تعرف نتيجته ، لكن عندما انعطف التركمان ، فرو بكل سرعة ممكنة ، فقتل كثير منهم هناك ، وتم أسر عدد كبير ليس من بين الجنود العاديين ، لكن من بين القادة ، وقد وصل العدد حتى الألفين .

ولدى سماع الأمبراطور بخبر هذا النصر ، أعطى أوامره بتوزيعهم بين الجزر ، ومضى الناجون من التركمان عبر نهر منادر نحو بوليوتوس (٤٦) ، و اتخذوا موقف المترقب ، مخيلا لهم أنهم ، بعدوا عن آثار جون دوقاس ، لكن الأمر لم يجر كذلك ، فقد ترك جون « بتزاس » في ولاية المدينة وأخذ معه جميع الرجال ، وانطلق في عملية المطاردة ، وزحفت قواته بنظام جيد ، ولم يكن هناك أية فوضى ، وفي الحقيقة اتبع جون تعليمات الأمبراطور وتحكم بالزحف بسلك وانضباط . لا يتمتع به إلا القادة المجرّبون ، وكما سلف القول شق التركمان طريقهم عبر نهر منادر من خلال البلدان المجاورة حتى وصلوا إلى بوليوتوس ، ولم يسلك جون الطريق نفسه ، بل سار عبر طريق أقصر حيث استولى على ساردس وفيلادلفيا (٤٧) على حين غرة ، وعهد فيما بعد إلى ميخائيل كومينوس بالدفاع عنهما ، وعندما وصل جون إلى لوديقيا خرج جميع السكان في الحال لاستقباله ، فعاملهم بمناوبة الفارين من وجه العدو ، والمهاجرين له وشجعهم ، وسمح لهم بالسكنى في أراضيهم من غير تدخل بشؤونهم حتى إنه لم يعين واليا عليهم ، ومضى من هناك ، وشق طريقه من خلال خوما ، واستولى على لامب حيث عين بوسثانيوس كامينوس قائدا عسكريا ، وعندما وصل أخيرا إلى بوليوتوس وجد هناك جماعة كبيرة من التركمان ، فقام بمهاجمتها فور تنزيلها لأحمالها ، وحدث قتال سريع ، أعطى نصرا حاسما ، حيث قتل فريق كبير من التركمان ، وتم الاستيلاء على كميات من الغنائم تتناسب مع أعدادهم .

ولم يكن جون قد عاد بعد ، حيث كان مايزال يكافح ضد

التركمان ، وذلك عندما أصبح الامبراطور جاهزا للزحف لتقديم العون إلى الفرنجة في منطقة انطاكية ، وبعدما ازاح كثيرا من البرابرة من طريقه ، وصل الامبراطور إلى فيلومليون (٤٨) مع جميع عساكره ، وقد جرى نهب عدد كبير من المدن التي كانت في السابق بيد التركمان ، وهناك التحق به غليوم دي غرانديسنيل ، وايتين كونت فرنسا وبييردي البس (٤٩) قادمين من انطاكية ، فقد تدلوا من أسوارها بواسطة حبل ، وجاءوا إلى طرسوس ، وقد علم منهم بأن الفرنجة أصبحوا في حالة ميئوس منها ، وأكدوا له بالآيمان بأن الانهيار كان كاملا ، ولهذا تلهف الامبراطور أكثر من ذي قبل للاسراع نحوهم بغية تقديم العون لهم ، كل ذلك على الرغم من المعارضة العامة لمثل هذه المغامرة .

وانتشرت انذاك اقاويل واسعة تحدثت عن هجوم مرتقب لحشود لاتحصى من البرابرة ، ذلك أن سلطان خراسان قام ، بناء على ماسمعه من أخبار توجه الامبراطور الكسيوس نحو الفرنجة بغية إمدادهم والتفريج عنهم ، قام بإرسال ابنه اسماعيل وبصحبته قوات ضخمة ، وكانت الأوامر المعطاه إلى اسماعيل تقضي بأن يعترض طريق الامبراطور قبل وصوله إلى انطاكية ، ودفعت الاخبار التي حملها الفرنجة من انطاكية ، مع أخبار قرب وصول اسماعيل دفعت الامبراطور إلى إعادة النظر بالخطط المرسومة من أجل إنقاذ الفرنجة .

لقد كان الامبراطور كله رغبة وشوق إلى سحق هجوم التركمان ، وطبعا وضع نهاية لقائدهم كربوقا ، ونظر إلى المستقبل متوقعا : أن إنقاذ المدينة التي استولى عليها الفرنجة حديثا ، لكن أمورها لم تستقر بعد ، وهي محاصرة من المسلمين ، هو أمر ممكن ، لكن الفرنجة قد فقدوا كل أمل في إنقاذ انفسهم ، وكانوا يخططون للتخلي عن دفاعاتهم وتسليمها إلى أعدائهم ، مركزين اهتمامهم على الاحتفاظ بحياتهم عن طريق الهرب .

في الحقيقة ، إن الفرنجة جنس متميز ، ولهم من الصفات : روح

فردية مستقلة متهورة ، ترفض رفضا قاطعا الانصياع إلى أنظمة فنون الحرب ، فعندما توشك الحرب على الاشتعال ويوشك القتال على الوقوع ، تراهم مندفعين بحماس لايقاوم (وهذا أمر واضح ليس بين جميع المراتب فقط بل حتى بين صفوف القادة أيضا) ، تراهم يندفعون نحو قلب صفوف الأعداء بشكل شديد الهول ، بحيث تزول أمامهم كل مقاومة ، لكن إذا حدث وأقام لهم أعداؤهم كمائن فيها عساكر بارعين ، يستطيعون القتال بشكل نظامي ، فإن شجاعتهم ستتلاشى كلها ، وبشكل عام نجد أن الفرنجة ليس لهم من يوازيهم في قتال الفرسان ، لكن على الرغم من هذا ، فإنه بسبب وزن أسلحتهم ، وما اتسموا به من تهور وعدم انتظام ، نجد أنه من السهل انزال ضربة بهم .

ولم يكن لدى الامبراطور ما يكفي من القوات للتصدي لأعدائهم الكبيرة ، أو لتغيير طباعهم ، أو دفعهم لتبني سياسة حكيمة عن طريق النصيحة والمنطق ، لهذا كله رأى الامبراطور أنه من غير المفيد متابعة سيره ، فهو قد يفقد القسطنطينية وانطاكية معا ، بسبب شدة رغبته في الحفاظ عليهما ، وكان يخشى خشود التركمان الكبيرة إذا ما نزلت عليه الآن ، فإن الناس الذين يعيشون في فيلوميلون سيكونون طعمة لسيوف البرابرة .

وقرر تحت معطيات هذه الظروف ، أن يعلن للجميع خبر زحف المسلمين ، وتم الاعلان في الحال بأن على كل رجل وامرأة مغادرة المكان قبل وصولهم ، وبذلك ينقذون حياتهم وأنفسهم وما أمكن حمله من مقتنياتهم ، وقد اختار جميع السكان نساء ورجالا ، للحاق بالامبراطور دونما تأخير (٥٠) ...

فهذه إذن الاجراءات التي اتخذها الكسيوس تجاه الأسرى ، ثم قام بفرز قطعة من الجيش ، قسمها إلى مجموعات صغيرة ، أرسل كل منها في اتجاه مختلف من الاتجاهات للقتال ضد المسلمين حيثما وجدوهم يقومون بأعمال السلب والنهب ، وكان عليهم إيقاف التركمان ومنعهم بالقوة ، واعد الكسيوس بنفسه العدة للعودة إلى

القسطنطينية ومعه جميع أسرى البرابرة والمسيحيين الذين انضموا إليه ، ووصلت أخبار نية الامبراطور المغادرة وقصده العاصمة ، إلى مسامع الأمير إسماعيل ، وسمع أيضا أخبار المذبحة الكبرى التي وقعت إثر ذلك مع أخبار التدمير الكامل للعديد من المدن أثناء الزحف كما علم بأن الكسيوس على وشك العودة ومعه كميات كبيرة من الغنائم والأسرى ، وبهذا تخرج وضع اسماعيل حيث لم يترك له شيئا يفعله ، فقد فقد صيده الثمين ، لهذا غير منحى مسيرته ، وقرر محاصرة بيبرت ، التي جرى احتلالها منذ وقت وجيز من قبل القائد الشهير ثيودور غابراس ، وتوقفت قوات التركمان جميعها عند النهر الذي يجري قريبا من ذلك الموقع ، ولم يعرف غابراس هذه القوات ، وكان قد قرر ان يكبسها ليلا ، ويهاجمها على حين غرة ، إن خاتمة اعمال غابراس مع اصله ، وصفاته ، هي موضوعات ستم الحديث عنها في مكان مناسب من هذا التاريخ ، فالذي علينا القيام به الآن هو استئناف قص روايتنا.

وكان الحصار قد اشتد على الفلنجة ، وفتكت بهم المجاعة ، وهنا انعطفوا نحو بطرس الناسك ، الذي كان قد هزم في السابق قرب هيلينبوس (كما سبق وأوضحنا) وسألوه تقديم المشورة وبذل النصيحة ، فأجابهم بقوله : « لقد وعدتم بأن تبقوا نفوسكم نقية حتى ساعة وصولكم إلى القدس ، لكنكم حنثتم بوعودكم وأظن أنه لهذا السبب توقف الرب عن مساعدتنا كما فعل من قبل ، عليكم بالعودة ثانية إلى الرب ، وتضرعوا إليه بالبكاء وطلب غفران الذنوب ، وأنتم ترتدون الأطمار وتذرون على رؤوسكم الرماد ، وبرهنوا على توبتكم بذرف الدموع ، وبإمضاء الليالي بالتضرع ، وطلب المغفرة ، وعندها سأنضم أنا بدوري إليكم ، واستمطر لكم رضى السماء ، وأتوجه بالدعاء من أجلكم » .

وأصفوا جميعا إلى نصيحة راهبهم الكبير ، وبعد مرور عدة أيام جاء هاتف إلى بطرس فحركه إلى حد أنه استدعى كبار الأمراء ، وأمرهم بأن يحفروا على يمين المذبح (٥١) ، فهناك

سيجدون - كما أخبرهم - المسامير المقدسة (٥٢) ، ونفذوا ماطلبه منهم ، لكنهم لم يجدوا شيئا ، لذلك عادوا اليه حنانقين يائسين ، فقام اثر ذلك يصلي بحرارة اشد من ذي قبل ، ثم امرهم بالتفتيش ثانية بشكل دقيق ، والتمحيص بكل عناية ، ومرة ثانية نفذوا اوامره بحذافيرها ، ووجدوا في هذه المرة ماكانوا يبحثون عنه ، وسارعوا الى اعطائه الى بطرس (٥٣) وهم في غاية السرور والغبطة والجيشان العاطفي الديني ، وعهد بعد هذا بالمسامير المقدسة ، الى صنجيل ، ليحملها اثناء المعركة ، لانه كان اكثر نقاوة من البقية .

وخرج الفرنجة في التالي مغيرين على التركمان من احد الابواب السرية للمدينة ، وكانت هذه هي المناسبة التي سأل فيها كونت اوف فلاندرز (٥٤) بقية الامراء ان يمنحوه مطلبا واحدا وذلك بالسماح له بأن يركب امام الجميع ، ويحمل على العدو ومعه ثلاثة رفاق ، وقد منح مطلبه هذا ، وعندما اصطف الجيشان المتعاديان امام بعضهما بعضا ، استعدادا للمعركة ، ترجل وركع على الارض ، وصلى للرب ثلاث مرات ، وتوجه اليه بالدعاء طالبا منه العون ، وعندما صرخ الجميع بصوت واحد « الرب معنا » حمل بما امكنه من السرعة ، وتوجه نحو كبريكا الذي كان واقفا على رأس تل هناك ، وتمكن اثناء حملته من صرع كل من اعترض سبيله ، والقى هذا الرعب في قلوب التركمان ، فشرعوا بالفرار ، حتى قبل ان يبدأ القتال وانه من الواضح ان قوة سماوية كانت تساعد المسيحيين ، زد على هذا انه اثناء الفوضى ، التي نجمت عن فرار البرابرة ، جرف تيار النهر معظمهم فغرقوا ، وتراكت جثث الموتى الى درجة انها كونت جسرا للذين جاؤوا بعدهم ، وبعد ما قام الفرنجة بمطاردة التركمان الى مسافة مناسبة ، عادوا نحو خندقهم حيث وجدوا جميع امتعتهم وغنائمهم التي جلبوها معهم ، وصحيح ان الفرنجة ملكوا الرغبة في الاستيلاء على ذلك ونقله فورا ، لكن نظرا لضخامة حجم الغنائم ، فهم ملكوا - بكل صعوبة - القدرة على نقلها الى دال انطاكية خلال ثلاثين يوما ، ومكثوا هناك بعضا من الوقت للاستجمام والراحة من

عناء الحرب ، و البحث في الوقت نفسه في أمر انطاكية ومستقبلها فقد وجدت حاجة لتعيين حاكم جديد لها ، وقد وقع اختيارهم على بوهيموند الذي كان طلب هذا المنصب قبل سقوط المدينة ، وتم منحه سلطات كاملة ، وانطلق بعد ذلك الاخرون شاقين طريقهم نحو القدس ، وجرى الاستيلاء على عدد من المواقع الساحلية الحصينة الواقعة على الطريق ، لكن الاماكن ذات الحصانة الشديدة ، والتي تحتاج الى وقت اطول لحصارها ، جرى تجاهلها الان ، من قبلهم ذلك انهم كانوا مسرعين ، ولديهم رغبة شديدة بالوصول الى القدس ولدى وصولهم اليها حاصروها ، وبعد عدة هجمات ، وحصار استمر شهرا قمريا سقطت المدينة (٥٥) وجرى هناك ذبح كثير من المسلمين والعبرانيين الذين كانوا فيها ، وعندما انتهت امر الاستيلاء عليها ، وقضى على جميع اعمال المعارضة ، جرى تتويج غودفري ملكا عليها ، ومنح صلاحيات كاملة .

وتم اخبار امير المؤمنين المتربع على عرش بابلينون (القاهرة) بغزو الفرنجة ، كما سمع بان القدس قد جرى الاستيلاء عليها من قبلهم ، وان انطاكية ذاتها قد احتلت مع عدد كبير اخر من مدن المنطقة ، وبناء عليه حشد جيشا من الارمن والعرب والمسلمين والتركمان ، وارسلت هذه القوة لحرب الفرنجة ، وقام غودفري باستنفار بني قومه ، وتوجه على رأسهم نحو يافا منتظرا الهجوم ، ثم تحول فيما بعد الى الرملة ، وهي المدينة التي استشهد فيها جورج العظيم ، وقاتل الفرنجة هناك ضد جيش امير المؤمنين ، ونالوا نصرا سريعا ، لكن في اليوم التالي ، لحقت طلائع الجيش المصري بمؤخرة الفرنجة ، فأنزلت بها ضربة قاسية ، واجبرت افرادها على الفرار بانفسهم نحو الرملة ، ولم يكن الكونت بلدوين بين الحضور ، فهو قد نجا ، ليس جبنا وفرارا ، بل كان قد ذهب للبحث عن وسائل اكثر جدوى لتأمين سلامته وسلامة الجيش ضد المصريين ، وقام المصريون بحصار الرملة ، ومالبت ان استولوا عليها ، وقد قتل كثير من الفرنجة انذاك ، لكن الذين اسروا وارسلوا الى مصر كانوا اكثر عددا ، وتوجهت القوات المعادية جميعها من الرملة وكرت منحرفة

لحصار يافا ، وهذه طريقة حربية من طرائق البرابرة الغادية المتبعة
وقام بلدوين بزيارة جميع المدن التي استولى عليها الفرتجة ،
وجمع عددا ليس بالكبير من الفرسان والرجال ، المهم في الامر انه
اصبح لديه قوة يمكن الاعتماد عليها ، وقام بالزحف ضد المصريين
وهزمهم بشكل حاد .

و سببت اخبار الكارثة التي نزلت باللاتين في الرملة هزة حزن
عميقة للامبراطور ، ولم يستطع تحمل اخبار الامراء الذين وقعوا
بالاسر (٥٦) ، فبالنسبة له بدا هؤلاء الرجال ، وهم في ريعان
الشباب ، في نروة نشاطهم وقوتهم وكل منهم من اصل نبيل ،
يعادلون ابطال السلف الاوائل ، لذلك رأى انه ينبغي عدم بقائهم مدة
اخرى اطول في الاسر في بلاد غريبة ، ولهذا قام باستدعاء برداس ،
واعطاه كمية كبيرة من المال لمفاداتهم ، وقبل ان يبعث به ليسافر الى
القاهرة ، زوده برسالة موجهة الى امير المؤمنين تتعلق بموضوع
الكونتات الاسرى ، وقرأ امير المؤمنين الرسالة ، وقام باطلاق
سراح الاسرى بلا مقابل ، ومنحهم حرياتهم بكل سرور ، فيما عدا
غودفري الذي كان اخوه بلدوين قد اشترى حريته ، (وعاد برداس
بهم) وجرى استقبال للكونتات لانق بمكانتهم ، وتم الترحيب بهم
من قبل الامبراطور في القسطنطينية ، وقد منحهم كمية كبيرة من
المال ، وبعدها نالوا قسطا من الراحة واستجموا بعث بهم الى
ديارهم ، وهم في غاية السرور ، للمعاملة التي لقوها منه ، اما
بالنسبة لغودفري فقد اعيد ملكا على القدس ، وقام بارسال بلدوين
الى الرها ، واصدر الامبراطور في هذه الأونة تعليماته الى صنجيل
بالتنازل عن « اللانقية » وتسليمها الى ادرونيكوس وتسليم مناطق
مرقية وبسانياس الى عمال يوماتيوس ، الذي كان انذاك حاكما
لقبرص ، وكان على صنجيل ان يتابع زحفه بعد ذلك ، ويقاوم جهد
طاقته بغية الاستيلاء على مناطق اخرى حصينة ، ونفذت هذه
الوامر حرفيا ، وقام بعد تسليم الاماكن المذكورة انفا بالتوجه الى
انطرووس ، فاستولى عليها دون سفك للدماء .

ودفعت هذه الاخبار اتابك دمشق للزحف ضده ، ولم يكن بإمكان
صنجيل التصدي لقوات دمشق التي كانت قوية وكبيرة العدد ، فقام
بإبداع خطة تدل على نكائه ، لكن ليس على شجاعته ، فقد وثق
بأهالي انطربوس ، واخبرهم انه سيختبئ في زاوية من زوايا احد
الابراج الكبيرة ، وقال لهم : « عليكم عندما يصل اتابك الا تخبروه
الصدق ، بل قولوا انني خفت وفررت بعيدا ، ، ولدى وصول اتابك
سألهم عن صنجيل ، فاقنعوه انه قد فر حقيقة ، وكان اتابك متعبا
بعد زحفه الطويل ، فقام بنصب خيمة قرب الاسوار ، واظهر له اهل
البلدة كل علائم الصداقة ، وقام التركمان الذين لم يرتابوا بالامر ،
بترك خيولهم وتسريحها لترعى في السهل ، وفي منتصف النهار ،
عندما كانت الشمس تبعث بأشعتها من قبة السماء ، قام صنجيل ،
وهو بكامل سلاحه ، ومعه رجاله ، وكان عددهم حوالي الاربعمائة ،
قام بالاندفاع فجأة من خلال احدى البوابات ، وانقض على
المعسكر ، وحاول بعض الرجال الشجعان التصدي له والقنل غير
هيايين ولابيين بسلامتهم ، بينما حاول البقية الفرار بحياتهم ، لكن
اتساع مساحة السهل ، وانعدام وجود اية اجمة او مرتفع او شعاب
جبلية للاختباء بها ، جعلت الجميع يقعون بين ايدي اللاتين ، فكانوا
جميعا طعمة للسيف ، فيما عدا حفنة منهم وقعوا بالاسر ، وقام
صنجيل الذي بز خصومه وفاقهم بمسلكه هذا ، قام بالمضي باتجاه
طرابلس ، وماان وصل هناك حتى تسلق احد التلال ، واستولى على
ذروته ، التي قامت بمواجهة المدينة ، والتي كانت جزءا من جبل
لبنان ، ويمكن استخدامها بمثابة حصن ، ويمكن منها قطع الماء
الذي يجري من جبل لبنان الى داخل طرابلس ، من فوق سفوح التل
وقام صنجيل باخبار الامبراطور بكل ماعمله ، واعلمه بضرورة
بناء حصن كبير هناك ، قبل ان تأتي قوة كبيرة من خراسان يمكنها
ايقاد نار الحرب ، واستجاب الكسيوس ، واوعز الى حاكم قبرص
بان يتولى مهام البناء في اي نقطة حصينة يقع اختيار الفرنجة عليها
(٥٧) ، وبينما كانت الامور تسير حسبما وصفنا ، تابع صنجيل
مرابطته خارج طرابلس ، باذلا كل جهد ممكن للاستيلاء عليها ..

ودعونا الان نعود الى بوهيموند ، فهو عندما علم بنبأ وصول زينتزبلوكس الى اللانقية ، اظهر ما ابطنه طويلا ، من صنوف الكراهية التي حملها ضد الامبراطور ، فارسل ابن اخته تانكرد مع قوة كافية من العساكر للقيام بحصار المدينة ، ووصلت هذه الاخبار في الحال الى مسامع صنجيل ايضا ، فخف دون ان يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وجاء الى اللانقية ، ودخل في نقاش حاد مع تانكرد وحاججه طويلا ليجعله يقلع عن مهمته ، وبعد عدة مقابلات لم يقنع تانكرد ، وكانت حال صنجيل مثل الذي يغني للطرشان ، لذلك عاد الى طرابلس ، وقام تانكرد من غير تقاعس ، بتشديد الحصار ، وبادر زينتزبلوكس ، الذي ساء وضعه الان ، والذي ضغط عليه بشدة واصرار من قبل اعدائه ، بطلب النجدة والعون من قبرص ، وكانت الاستجابة بطيئة جدا ، مما جعله في وضع اليأس لاسبب الحصار فحسب ، ولكن - اكثر من ذلك - بسبب المجاعة ، لهذا قرر تسليم اللانقية .

وبينما كانت هذه الحوادث تجري ، بات من المقرر ضرورة اختيار خليفة لغودفري ، يحل محله في الملك (ذلك انه كان قد مات) (٥٨) وإثر موته ، بعث اللاتين في القدس وراء صنجيل لجلبه من طرابلس راغبين في وضعه على العرش ، لكنه رفض ان يقوم بالرحلة الى القدس في ذلك الوقت ، وقد سافر فيما بعد الى العاصمة ، لكن عندما ادرك اهالي القدس استمرار رفضه يتصلب ، بعثوا وراء بلدوين (٥٩) واختاروه ملكا (٦٠) .

وقصد صنجيل القسطنطينية حيث استقبل بالترحاب من قبل الامبراطور لكن عندما عرف الكسيوس خبر اعتلاء بلدوين للعرش ، احتفظ به في القسطنطينية ، ووصل في هذه الاثناء الجيش النورماندي (٦١) تحت امرة كونت بيندرت واخيه ، وقد وجه الامبراطور النصح مرارا اليهما بضرورة اتباع الطريق الذي سلكه سلفهم (اي عبر المنطقة الساحلية) لكنهما لم يصغيا اليه ، ذلك

انهما لم يرغبيا بالانضمام الى الفرنجة (٦٢) ، بل قد ارادا السفر عبر طريق اخر يقود الى الشرق ، ماضين مباشرة نحو خراسان ، التي قررا احتلالها ، ولقد عرف الامبراطور بأن خطتهما كانت خطة مأسوية تماما ، وحيث انه لم تكن لديه الرغبة في ان يرى جيشا بهذا الحجم يعاني من الابدانة (فقد كان هناك خمسون الفا من الفرسان ومائة الف من الرجال) ولما لم يكن من الممكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد ما يمكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد ما يمكن وصفه طريقا جديدا ، واستدعى صنجيل وزيتاس ليزهبا معهما ، وكان عليهما تقديم النصح المناسب ، ويحولا قدر امكانهما بينهما وبين المغامرات الجنونية ، وعلى هذا عبر المضائق الى كيبوتوس ، واسرع الجميع خطاهم نحو بند ارمينية فاستولوا على انقرة على حين غرة (٦٣) ، ثم عبروا نحو هاليس ، ووصلوا الى بلدة صغيرة كانت بيد البيزنطيين ، وقد اطمان اهلهما للنورمان ووثقوا بهم على اساس انهم مسيحيون ، فخرج رجال الدين في مسوحهم وهم يحملون الاناجيل واقتربوا منهم لكن الذي حدث ان الغزاة لم يكتفوا بقتل الرهبان بطريقة وحشية وغير انسانية ، بل اقدموا على ذبح بقية المسيحيين وازالوهم من الوجود ، ثم تابعوا زحفهم باتجاه اماسيا ، وقام التركمان الذين كانوا بارعين بفنون القتال ، ومحتلين لجميع القسري على طريقهم ، قاموا باحراق جميع المؤن والاطعمة قبل وصولهم ، ثم قاموا بالهجوم عليهم مسرعين ، وفي يوم الاثنين تمكن التركمان من قهرهم ، ففي ذلك اليوم عسكروا في احد الاماكن في منطقة اماسيا ومعهم اثقالهم ، وقد خزنوها في داخل المعسكر ، لكن تم في يوم الثلاثاء استئناف القتال وطوق التركمان العساكر النورمانية ، لهذا حرموهم من فرصة التزود بالمؤن ، كما انهم لم يتمكنوا من اخذ خيولهم وحيوانات الظهر لورود ، وراى الفرنجة بنام اعينهم ان الفناء بانتظارهم ، وقاموا في اليوم التالي (الاربعاء) بالخروج بكامل اسلحتهم ، غير عابئين بسلامة انفسهم ، وانخرطوا في لجة معركة قاسية مع البرابرة ، وصاروا الان في قبضة التركمان ، لهذا لم يستخدموا - في هذه الساعة - الرماح والنشاب ضددهم ، بل

امتشقوا سيوفهم ، والتحموا بهم عن قرب ، وهرب النورمان في الحال ، وارتدوا نحو معسكرهم ، وانتظروا من يقدم اليهم النصح ، وتذكروا النصائح الخالصة التي قدمها لهم الامبراطور ، وفتشوا عنها ، فلم يجدها معهم ، ولم يبق امامهم الا سؤال كل من صنجيل وزيتاس عن رأيهما ، وبحثوا في نفس الوقت واستفسروا فيما اذا كان في تلك الجوار اي منطقة هي تحت حكم الامبراطور ، عليهم يجنون مأوى لهم ، وتخلوا في النهاية عن مقتنياتهم وخيمهم مع جميع المشاة ، وامتطوا خيولهم وشقوا طريقهم (٨٤) مارين بأقصى سرعة ممكنة باتجاه المنطقة الساحلية لبند ارمينيا وبوريا (٨٥) وقام التركمان بهجوم جماعي على المعسكر ، واستولوا على كل شيء فيه ، وشرعوا بعد ذلك بمطاردة الرجالة ، واصطدموا بهم فأبانوهم عن بكرة ابيهم ، اللهم الا حفنة من الرجال حملوهم اسرى الى خراسان ليجري عرضهم هناك .

هذا مايتعلق بنجاحات التركمان في معركتهم ضد النورمان ، اما ما يختص بصنجيل وزيتاس ، فانهما اخذا طريقهما عائدين الى القسطنطينية مع عدد قليل من الناجين من بين الفرسان ، واستقبلهم الامبراطور هناك ، وبعدها قدم لهم بعض الهدايا السخية من المال وسمح لهم بالراحة ، سألهم الى اين يودون الذهاب ، فاختاروا القدس ، فاستجاب لمطلبهم تمام الاستجابة ، فاعد لهم سفينة وبعث بهم بعدما ارفقهم باعطيات كثيرة .

وبقي صنجيل في القسطنطينية ، والتحق من هناك بجيشه في طرابلس ، حيث بحث بجد واندفاع عن الوسائل التي تمكنه من الاستيلاء على المدينة ، ونزل به فيما بعد مرض قاتل ، فقام وهو يلفظ انفاسه الاخيرة باستدعاء حفيده وليم (٨٦) ، فمنحبه جميع ميراثه مع جميع المواقع الحصينة التي استولى عليها .

وعينه قائدا عاما لقواته ، وعندما وصلت انباء وفاته الى الكسيوس كتب الى حاكم قبرص يامره بارسال نيكيثاس خالنتازس مع مبلغ كبير من المال ليعطيه الى وليم ، وان يعمل في سبيل كسبه

الى جانبه ، واقناعه بان يقسم قسما صحيحا بالولاء للامبراطور ، وهو ولاء حافظ عليه خاله صنجيل المتوفى ، حافظ عليه باخلاص حتى آخر حياته .

ووصلت الاخبار الى الامبراطور باحتلال تانكرد لمدينة اللاذقية ، فارسل رسالة الى بوهيموند قال فيها : « لاشك انك عارف بالمواثيق والعهود التي صنعتها للامبراطور البيزنطي ، ليس من قبلك وحدك ، وانما من قبل بقية الامراء ، وانت الان اول من يحنث بوعده ، لقد استوليت على انطاكية ، وقمت بالاستحواذ بطرائق خفية على عدد اخر من الاماكن الحصينة بما في ذلك اللاذقية نفسها ، انني اطالبك انت بالذات بالجلاء عن مدينة انطاكية والاماكن الاخرى ، فبذلك تكون قد قمت بصنع ما هو صحيح ، ولا تحاولن اثاره العدوان والحرب مجددا ضد نفسك .

وقرأ بوهيموند هذه الرسالة على انفراد ، لانه لم يكن من الممكن الاستمرار بالدفاع عن نفسه بخداعه المعتاد ، فاعماله حملت شهادة واضحة على الحقيقة ، ولهذا أقر - نظريا - بان الرسالة محقة ، لكنه وجه اللوم الى الامبراطور في دفعه على الاقدام على اقتتراف اعماله الشريرة ، وكتب اليه يقول : « انا لست مسؤولا عن هذه الاشياء ، لكنك انت المسؤول ، فانت الذي وعدت بان تلحق بنا على راس قوة كبيرة ، لكنك لم تكن راغبا في دعم وعودك بالاعمال ، اما بالنسبة لنا : اننا عانينا بعد وصولنا الى انطاكية - لمدة ثلاثة اشهر - صراعا رهيبا ، مع مجاعة لايمكن نسيانها ، وكانت شديدة الى حد اجبرت فيه معظمنا على اكل اللحوم المحرمة بالشرعية ، ومع هذا قاومنا وصمدنا احسن ما يمكن ، وبينما كنا نفعل ذلك ، فقد قام تاتشوس ، خادمكم المخلص ياصاحب الجلالة ، الذي عينتموه لتقديم العون لنا ، قام بالتخلي عنا في محنتنا ومضى بعيدا ، وخلافا لكل ما كان متوقعا تمكنا من الاستيلاء على المدينة ، والحقنا الهزيمة الماحقة بالقوات التي قدمت من خراسان لمساعدة رجالات

انطاكية ، والان اخبرني كيف يمكن لنا التخلي هكذا بكل سهولة عما
لنا به عرقنا وتعبنا ؟ .

ولدى عودة سفراء الامبراطور اليه ، وقراءته لجواب بوهموند ،
لاحظ ان بوهموند الحالي هو نفس بوهموند القديم ، الفاسد ولا
امل بصلاحه ابدا ، ووضح على هذا ان حدود الامبراطورية
الرومانية ينبغي ان تصان بشكل حازم ، كما ان مطامح بوهموند
غير الملقومة ينبغي ضبطها ، ولهذه الاسباب جرى ارسال
بوتومايتز على راس عساكر دسره الى كيليكية ، وشكل هؤلاء الجند
الذين صحبوه نخبة عناصر الجيش ، وكانوا من خيرة المقاتلين ،
وكان كل منهم حامي الحمى ، وكان برفقته برداس وميخائيل كبير
الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري » وكان كلاهما من
الفتيان ، وقد ظهر شعر لحيتهما للتو ، فعندما كان هذان الرجلان
طفلين صغيرين وضعهما الامبراطور تحت رعايته ، وثقفهما ثقافة
عسكرية جيدة ، وحيث انه اعتمد على اخلاصهما اكثر من
سواهما ، بعث بهما للخدمة تحت امرة بوتومايتز مع الف اخرين من
خيرة الجند من كل من البيزنطيين والفرنجة ، وكان عليهما مرافقة
بوتومايتز واطاعته في كل شيء ، لكن الامبراطور اعتمد عليهما - في
الوقت نفسه - باخباره برسائل سرية حول الاشياء العادية التي
تقع من وقت الى وقت ، فقد كان همه وشغله الشاغل ضمان جميع
جوانب كيليكية حيث سيكون انذاك من السهل الاعداد للعمليات ضد
انطاكية ، وانطلق - على هذا الاساس - بوتومايتز ومعه جميع
قواته ، ووصل الى انطاكية ، حيث اكتشف هناك بان برداس
وميخائيل كانا لايطيعان اوامره ، وحتى يحول دون حدوث عصيان
بين قواته - العمل الذي كان من الممكن ان يعطل حماسه وشدة
اندفاعه ، ويجبره على اخلاء كيليكية دون انجاز اي شيء - قام على
الفور باخبار الكسيوس بأعمالهما ، ورجا اعفائه من صحبتهما ،
وبادر الامبراطور ، الذي كان عليهما بمدى الضرر الذي يمكن ان
يسببه مثل هذا الصنف من الرجال ، فأمر بتحويلهما مع جميع

المتهمين الى اداء مهام أخرى ، وأخبرهما كتابة بأمره بالالتحاق من غير تأخير بقسطنطين (٣٧) بقسطنطين يوفور بيذوس في قبرص ، واطاعة كل ما يصدره إليهما من أوامر .

وقرأ الشبان التعليمات الصادرة إليهما ، وتلقياها بكل سرور ، وأبحرا بما أمكن من سرعة إلى قبرص ، وأمضيا هناك فترة وجيزة مع قسطنطين قبل أن أخذا يتصرفان برعونتهما المعهودة أيضا ، ومن الطبيعي أنه نظر إليهما بارتياح ، لأنهما كتبا أيضا الرسائل إلى الامبراطور ، وشحناها بالتهم ضده ، وتذكرا رعاية الامبراطور لهما ، وعواطفه نحوهما ، لذلك أشارا دائما إلى القسطنطينية ، وخشي الكسيوس من رسائلهما ، فقد وجد معهما في قبرص عددا من النبلاء المشكوك باخلاصهم ، والذين أبقاهم منفيين هناك ، وبما أنه صار من الممكن أن يصاب هؤلاء الرجال بعدوى مشاعرهم الفاسدة ، فقد أمر حالا كانتا كوزينوس أن يصطحب الشابين معه ، فجاؤا إلى كيرينا واستدعاهما ، وأخذهما بعيدا .

هذا ما كان من قصة برداس وميخائيل كبير الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري » ، أما بالنسبة لبوتومايتز فقد وصل إلى كيليكية مع موناستراس وبقية القادة الذين تركوا معه ، وعندما وجد أن الأرمن كانوا على وفاق واتفاق مع تانكرد ، مر بهم ، واستولى على مرعش مع المدن المجاورة والأماكن الصغيرة ، وترك قوة قادرة على حراسة جميع المنطقة تحت أمرة القائد نصف البربري موناستراس ، وعاد بوتومايتز - نفسه - إلى العاصمة (٣٨) .

وعندما انطلق الفرنجة نحو القدس ، وهم على نية الاستيلاء على مدن سورية ، قدموا وعودا سخية الى اسقف بيزا (٦٩) ، فيما لو ساعدهم على تحقيق أهدافهم ، وقد قنع بأقوالهم وأثار اثنين من زملائه كانا يعيشان على البحر لتبني المنهج نفسه ، وقام - من غير تأخير - بتجهيز بعض السفن نوات الصفين من المجانيف ، ونوات الثلاثة صفوف والسفن الكبيرة والسريعة حتى بلغ التعداد إلى تسعمائة ، وأقلع نحو سورية ، وفي الطريق أرسلت قطعة من هذا

الاسطول تحوي عددا مناسباً من السفن لنهب مدن : كورفو ، كيوكاس ، كيفالونيا ، وزاسينياتوس ، وبناء على هذا أمر الامبراطور جميع مقاطعات الامبراطورية البيزنطية القيام ببناء السفن كما جرى اعداد بعضها ، وتجهيزها في القسطنطينية نفسها ، واستعمل الامبراطور من وقت إلى آخر سفناً من نوات الصف الواحد من المجانيف ، وكان يقوم بنفسه بتقديم النصائح إلى صناع السفن حول طريقة بناء المراكب ، فقد كان يعرف أن أهل بيزا هم سادة الحروب البحرية ، وكان يخشى جانبهم ، ويتخوف الدخول في معركة بحرية معهم ، وتبعاً لذلك أمر أن يثبت على مقدمة كل سفينة رأس أسد أو رأس واحد من الحيوانات البرية الأخرى وصنعت هذه الرؤوس من البرونز أو من الحديد المطلي بالذهب ، وكانت أفواهها مفتوحة ، وجعلت قشرة الذهب التي طلوا بها منظرهم مخيفاً ، وكان من المفترض قذف النار الأخرقية من خلال أنابيب تنتهي في أفواه تماثيل رؤوس الحيوانات هذه بطريقة ، بدوا فيها وكأنهم يقذفون اللهب من أجوافهم .

وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ، استدعى الكسيوس تاتيشوس ، الذي كان قد قدم لتوه من أنطاكية وعهد إليه بأمر هذا الاسطول ، ومنحه لقب امير امراء الماء ، لكنه عهد في الوقت نفسه الى لاندواف (٧٠) بالمسؤولية عن عمليات جميع الاسطول ، وتم ترفيعه الى مرتبة الدوق الأعظم ، لأنه كان أكبر الخبراء بفن حرب البحر ، وغادر الاسطول العاصمة في النصف الثاني من نيسان (١٠٩٩)م ووصل الى جزيرة ساموس ، ورست السفن قرب الشاطئ ، ونزلوا منها ، ثم سحبت جميع السفن الى الشاطئ الرملي وطلبت هناك بالقار بشكل جيد وديق ، وجعلت جاهزة للعمل البحري ، وعندما سمع « البيزنطيون » بمسيرة البيازنة اقلعوا وأخذوا بمطاربتهم حتى جزيرة كيوس ، ووصل البيازنة إلى هذه الجزيرة في الصباح ، في حين وصلها البيزنطيون في المساء ، حيث لم يجدوا هناك أحداً من البيازنة ، لأنهم أبحروا نحو بعض البيازنة وقد تخلفوا (بينما الصيد الكبير كان قد نجا

(منهم) وسألوهم عن الجهة التي قصدوا أسطول البيزانة ، فقالوا : « اتجه نحو رودس وأقلع البيزنطيون بالحال ثانية ، وما برحوا أن رأوهم ما بين باتر ورودس ، ورصدوا أوضاع البيزانة وراقبوهم ، فوجدوهم قد أعدوا أنفسهم للمعركة بسيوف حادة وقلوب مستعدة للبراز ، واقترب الأسطول البيزنطي منهم ، وقام أمير بيلوبونيزي يدعى بيرش تاس ، وكان مختصا بالكمان البحرية ، قام لدى رؤيته للعدو ، بالتجديف نحوه بأقصى سرعة ممكنة ، وشق طريقه إلى وسط الأسطول البيزي كالصاعقة ، ثم كر راجعا نحو البيزنطيين ، الذين - لسوء الحظ ، لم يدخلوا المعركة بشكل نظامي ، لقد قاموا بانقضاض حاد ، لكن بقتال فوضوي ، وكان لاندولف ذاته هو أول من التحم بالعدو ، لكن نيرانه أخطأت الهدف ، وكان جل ما صنعه هو أنه بدد وقوده ، وقام الكونت المدعو باسم ايلي مون بهجوم جريء على قارب كبير من جهة المؤخرة ، فأصاب المرساة ، إنما وجد من المتعذر تمزيقها ، وكاد نفسه أن يقع في قبضة العدو ، لولا أنه - بالساعة المناسبة - هيا الوقود ، وأعد أنابيبه ، ووجه ضربة مباشرة بالنار الأغريقية نحوها ، ثم ناور بسفينته ببراعة في مختلف الاتجاهات ، وتمكن بالحال من احراق ثلاث سفن ببيزية كبيرة جدا ، وثار في تلك الساعة عاصفة هوجاء من الريح ، انقضت على السفن بكل عنف وضربتها ، فانحرفت السفن جميعا ومالت ، وأصبحت مهددة بالغرق ، وصدمتها الأمواج ، فدمرت ساحات القتال ، وتمزقت الاشرعة (٧١) ، وخاف البرابرة ، وحل بهم الهلع بسبب النيران التي وجهت اليهم وصبت عليهم) ذلك انهم لم يكونوا معتادين على مثل هذه المعدات ، وارتفع لهيب النيران ، ووجهت في اي اتجاه اراده البيزنطيون ، وغالبا ما اطلقت نحو اسفل السفن وجوانبها لخرقها او لتدمير اطرافها) كما فقدوا عقولهم بسبب وقوعهم بالفوضى الناجمة عن البحر الهائج ، ولهذا قرروا الفرار.

هذا ما كان بالنسبة اليهم ، أما بالنسبة للأسطول البيزنطي ، فإنه وقف على شاطئ جزيرة يشبه اسمها عبارة « سيتلوس » وعندما

جاء الصباح ، أبحر نحو رودس ، وألقى البيزنطيون مراسيمهم هناك ، وقادوا أسراهم ، بما فيهم حفيد لبوهوموند ، وحاولوا اخافتهم عن طريق التهديد بالقتل أو البيع بمثابة رقيق ، ولكن عندما رأوا أن القتل لا يخيفهم ، وأن الرق ليس له تأثير عليهم ، لم يضيعوا وقتهم وقتلوهم صبورا جميعا .

أما الناجون من الحملة البيزية فقد انعطفوا نحو الجزر الواقعة على طريقهم حتى قبرص يريدون نهبها ، وحدث أن كان يوماثيوس فيلوكاس في قبرص ساعة وصولهم إليها ، فقام بمحاربتهم ، وهنا حل الهلع بقلوب بحارتهم ، فأقلعوا مبحرين من غير أي اعتبار لوجود رفاقهم الذين نزلوا الى الشاطئ للتهب وتخلوا عن معظمهم وتركوهم على ظهر الجزيرة وساروا مسرعين في حالة من الخوف الشديد نحو اللاذقية على نية الالتحاق ببوهوموند ، وتمكنوا بالفعل من الوصول الى اللاذقية ثم نهبول اليه معلنين عن رغبتهم بصداقته: وحيث كان بوهوموند هو ذاته ، فقد سر بوصولهم ، واحسن استقبالهم ، وهذا بالنسبة لهؤلاء ، اما ما حدث للذين هجروا على اليابسة ، فانهم عادوا لجمع ما نهبوه ورأوا اسطولهم قد اقلع بعيدا القوا بأنفسهم بالبحر وماتوا غرقا جميعا.

ووصل بعد هذا امير الماء البيزنطي وبصحبته لاندولف ، وبعد وصولهما عقدا اجتماعا تباحثا فيه حول ابرام اتفاق للاسلم مع بوهيوموند ، وعندما اقر الجميع بان مثل هذا الامر مرغوب فيه ، جرى اختيار بوتومايتز ليكون مبعوثهم الى بوهوموند وصار اليه ، فاحتفظ به لمدة خمسة عشر يوما ، وكانت اللاذقية تعاني آنذاك من المجاعة ، وكان بوهوموند هو نفسه بوهوموند القديم مرة ثانية من غير تغيير ابا رجلا لم يتعلم ما يعنيه الحفاظ على السلم ، وقد بعث الى بوتومايتز : « انك لم تقدم لاجل الصداقة ، وليس وجودك هنا للبحث عن السلام ، ولكن لتحرق سفني ، اذهب بعيدا ، واعتبر نفسك سعيد الحظ ، لانني سمحت لك بالذهاب سليما من الاذى » وعلى هذا مضى بوتومايتز منصرفا ليجد نفسه فيما بعد في ميناء قبرص ،

وغدت نوايا بوهوموند الشريرة الان اكثر وضوحا ، بعد كل ما ابداه ووضح الان ان ابرام معاهدة بينه وبين الامبراطور امر بعيد المنال ، لذلك رفع البيزنطيون مراسيمهم ، واقلعوا جميعا يريدون العاصمة « فوق طريق من الماء » (٧٢) وبعدهما بعدوا عن سايك (٧٣) ثار بهم اعصار شديد ضرب الامواج بغضب شديد مما سبب جنوح جميع السفن فيما عدا السفينة التي كانت تحت امره تاتشوس ، فانها كادت ان تتحطم وكانت هذه هي نتائج الحرب البحرية ضد البيازنة .

وفي الوقت نفسه ، فان بوهوموند الذي كان في جبلته ساكرا مخادعا ، خشي من نوايا الامبراطور ، لانه كان من الممكن له ان يسارع ويسبق الامور فيستولي على مدينة كوريكوس (٧٤) ويمركز هناك اسطولاً بيزنطياً ، وبذلك يحمي قبرص ، ويمنع وصول حلفاء من المؤمل قدومهم من لومبارديا عبر سواحل الاناضول ، وبالفعل قرر الامبراطور - في ظل هذه الظروف - اعادة بناء كوريكوس ، واحتلال مرساها ، وقد كانت هذه البلدة في الماضي مدينة قوية جدا ، لكنها تحولت فيما بعد الى ركام ، والآن وقد رأى الامبراطور ابعاد استراتيجية بوهوموند وتطلعاته اتخذ احتياطاته ، فأمر بترقيع الخصي يوستاثيوس من وظيفة الدوادر الى مرتبة كبيرقباطنة الاسطول ، وكلفه بمهمة الاستيلاء على كوريكوس ، وبعثة للقيام بها من غير تأخير ، وكان عليه ان يسارع الى اعادة بناء ذلك الموقع مع حصن سلوقية الواقع على مسافة ست مراحل منه ، وقضت الاوامر الصادرة اليه بوضع حاميه قوية في كل واحد من الموقعين ، وتعيين القائد سترابو في منصب الولاية وسترابو هذا كان صغير الحجم ، الا انه كان في فن الحرب رجلاً عظيماً الاهمية ، زد على هذا كان من المتوجب مرابطة اسطول قوته كافية في الميناء ، ويتم الاعلان الى البحارة ليكونوا دائمي اليقظة منتظرين وصول النجيدات الى بوهوموند من لومبارديا ، وان يقدموا العون المحتاج الى قبرص .

وابحرت الحملة فاعاقت خطط بوهوموند ، واعادت كوريكوس الى

حالتها السالفة واعيد بناء سلوقية في الحال ، ومنتت دفاعاتها بخندق أحاط بالمدينة ، وكان لدى سترابو مايكفي من الرجال للتصدي لأية طوارئ في كل من سلوقية وكوريكوس مع عدد كاف من السفن راسية في الميناء ، وعاد بعد هذا يوستاثيوس إلى العاصمة ليطري اطراء كبيرا من قبل الامبراطور وينال أكبر الجوائز منه .

هذا ما كان بالنسبة للاعمال التي تمت في كوريكوس وعلم (٣٥) الامبراطور باخبار حملة جنوية على نية الابحار لمساعدة الفرنجة ، وقد رأى بان الجنويين مثلهم مثل الاخرين سيسببون مشاكل كبيرة للامبراطورية البيزنطية ، وتبعاً لهذا تم ارسال كانتاكوزينوس على رأس جيش معتبر ، وابتحر في الوقت نفسه لاندولف مع اسطول بحري جرى اعداده على جناح من السرعة وكانت مهمة لاندولف الابحار بما امكن من سرعة نحو الشواطئ الجنوبية (٣٦) فقد توجب محاربة الجنوية لدى عبورهم كيليكية .

ومضى الرجلان كل واحد منهما لتنفيذ المهمة المعهودة اليه لكن عاصفة هوجاء سببت تدمير عدد كبير من السفن ، وقد سحبت السفن الى الشاطئ وجرى تقييدها بكل عناية ، وعلم كانتاكوزينوس في هذه الاثناء بان الاسطول الجنوبي قريب في الجوار ، فاقترح ان يأخذ لاندولف ثمانى عشرة سفينة (لانه كما صدف كانت هذه السفن الوحيدة الصالحة للابحار في ذلك الوقت ، والباقي على اليابسة) ويبحر نحو رأس ماليوس حيث يستطيع ان يلقي مراسيه هناك (حسب نصيحة الامبراطور) وعندما يمر العدو بقربه ، اذا شعر بان لديه القدرة على دخول الصراع ، هاجم بالحال ، واذا رأى انه لا يستطيع ، تدبر امر سلامة نفسه وسلامة سفنه وجذب على مقربة من الشاطئ حتى كورون ومضى لما أمر به ، وعندما رأى حجم الاسطول الجنوبي الكبير قرر عدم القتال وعوضاً عن ذلك أبحر بسرعة نحو كورون ، وقام كونتاكوزينو بأخذ جميع القوى البحرية البيزنطية (لانه كان من الضروري ان يفعل ذلك) وحمل ما يمكنه حمله من العساكر معه وشرع بمطاردة الاعداء

باقصى سرعة ممكنة ، وقد اخفق باللحاق بهم ، لكنه وصل الى اللانقية ، وكانت لديه الرغبة في الدخول في امتحان للقوة مع بوهيموند ، حيث قام باحتلال الميناء ، وهاجم - بلا توقف - اسوار المدينة ليلا ونهارا ، لكنه لم يحقق اي تقدم يذكر ، فمئات الهجمات تمت على سور المدينة ومئات منهن رددن واحبطت محاولاته لكسب الفرنجة الى جانبه ، وهكذا اخفقت معركته ضدهم ، لهذا عمد الى تشييد سور مستدير من الصخور الجافة بين الرمال وسور اللانقية ، واستغرق هذا العمل ثلاثة ايام بلياليها ، وعندما كملت عمارته ، استخدمه بمثابة غطاء واق ، بينما جرى بناء سور آخر من الداخل بشكل محكم جاء بمثابة قاعدة للعمليات القتالية ضد دفاعات المدينة ، زيادة على هذا شيد برجان على طرفي مدخل المرسى ، ومد سلسلة معدنية بينهما ، وبهذا حال دون وصول المساعدات من جهة البحر ، واستولى في الوقت نفسه على عدد من الحصون على طول الساحل مثل : عرقة ، والمرقب ، وجبله ، ومواقع اخرى حتى حدود طرابلس ، منها ما كان يدفع في السابق الجزية للمسلمين ، لكن اعيد الان ضمه الى اراضي الامبراطورية البيزنطية وتوحيده معها وذلك بعد بذل الكثير من الجهد والعرق ، وادرك الكسيوس انه ينبغي حصار اللانقية من جهة البر ايضا ، فلقد كان صاحب تجربة طويلة بحيل بوهيموند وطرائق قتاله (ذلك انه كان عبقريا في سرعة التعرف على اخلاق الرجال والحكم عليهم) ويعرف جيدا الطبيعة الخيانية لهذا الامير واعمال تمرد ، لهذا بعث موناستراس على رأس فرقة قوية ليحاصر اللانقية من جهة البر ، بينما قام كانتاكوزينوس بحصارها من جهة البحر ، لكن قبل وصول موناستراس كان زميله قد تمكن من احتلال كل من الميناء والمدينة ، وبقيت القلعة (يشار اليها في ايامنا هذه باسم القلة) في ايدي خمسمائة من مشاة الفرنجة ومائة من فرسانهم .

وسمع بوهيموند بكل هذا كما وصله خبر من الكونت المسؤل عن الدفاع عن القلعة ، بانعدام المؤن لديه ، فقام بجمع قواته مع قوات تانكرد وصنجيل ، وحمل جميع انواع الاطعمة والمؤن على ظهور

البغال ، وانطلق يريد اللانقية ، وعندما وصلها لم يحتج الى طويل وقت حتى أوصل المؤن إلى القلعة ، وقابل بـوهيموند كونتاكوزينوس ، وسأله : ما هي الغاية المرجوة من وراء تشييد هذا البناء ؟ فأجابه : لاشك انك على بينة بانك انت والامراء من اتباعك قد اقستم على الدخول في خدمة الامبراطور ، ووافقتم عن طريق القسم على تسليمه اية واحدة من المدن استوليتم عليها ، ولقد حنثت بقسمك والقيت جانبا بمعاهدات السلم ، فبعد ان استوليت على هذه المدينة وسلمتنا اياها ، تراجعتم وبدلت رأيك واحتفظت بها ، لهذا عندما قدمت الى هنا لتسلم المدن التي استوليت عليها ، جاءت زيارتي بدون ثمرات ، وهنا سأله فأجابه : هل جئت الى هنا على أمل أخذها منا بالمال أم بالقوة؟ فأجابه : لقد تسلم حلفاؤنا المال لشجاعتهم في الحرب ، فامتلا بوهيموند غضبا ، وقال له : تيقن مما سأقوله : من غير المال لن تستطيع الاستيلاء على مركز للحراسة ، قال هذا وامر جنده بالاستعداد وحرضهم على الهجوم على ابواب المدينة لكن عندما اقترب الفرنجة من الاسوار ردوا على اعقابهم من قبل رجال كانتاكوزينوس الذين كانوا يحرسون الشرافات بحيث اطلقوا عليهم رشقات كثيفة من النشاب ، تشبه زخات الثلج ، واعاد بوهيموند جمع قواته ، ودخل واياهم الى القلعة ، وحيث انه كان يرتاب باخلاص الكونت الذي كان يدافع عن اللانقية ، ولا يثق برجاله ، فانه قام بتسريحه وتسريحهم ، وعين قائدا جديدا ، ثم قام في الوقت نفسه بتدمير الكروم القريبة من الاسوار حتى يتمكن فرسان الفرنجة من التحرك بحرية ، وبعدما قام بهذه الاجراءات غادر اللانقية وعاد الى انطاكية .

اما بالنسبة لكانتاكوزينوس ، فانه تابع اعمال الحصار بكل الوسائل المتوفرة لديه ، وجرب مئات الطرق ، فقام بالانقراض المفاجيء ، وعمل على التضييق على الفرنجة في القلعة ، وفي الوقت نفسه كان موناستراس مشغولا أيضا ، حيث زحف عبر اليايسة على رأس فرسانه فاحتل لونغينياس (٧٧) وطرسوس واذنة والمصيصة ، لا بل جميع كيليكية .

واصاب بوهوموند الهلع خوفا من تهديدات الامبراطور ، لانه لم يملك وسائل الدفاع (حيث لم يكن لديه جيش في البر ولا اسطول في البحر وقد احاقت به الاخطار من الجانبين) فلجأ الى ابداع خطة لم تكن مشرفة ابدا ، لكنها كانت بارعة الى حد مدهش ، فقد قام اولا بايداع مدينة انطاكية في يدي ابن اخته تانكرد بن المركيز اودو ، ثم نشر اشاعة وروج لها في كل مكان ، وقد دارت حول نفسه ، بانه قد مات ، وهكذا اقنع العالم اجمع بموته ، وبمبارحته لهذه الدار ، وهو ما يزال على قيد الحياة ، وانتشرت هذه الاشاعة كانتشار النار في الهشيم ، وعمت جميع الارحاء .

وعندما تصور بأن القصة انتشرت بما فيه الكفاية اعد تابوتا من الخشب وسفينة ذات صفيين من المجذقين ، ووضع التابوت على ظهرها ، بينما ظل هو في داخله جسدا ميتا ، لكنه يتنفس الهواء ، وابتحرت السفينة من السويدية - ميناء انطاكية - نحو روما ، ونقل على ظهرها بمثابة جسد ميت ، وظهر للجميع (من النعش وسلوك مرافقيه) ان بداخله جسدا ميتا ففي كل محطة قام البرابرة بتمزيق شعورهم ، واطهروا مناحتهم عليه ، بينما تمدد بوهوموند على طوله داخل نعشه ، وكان هذا هو مظهر الموت الوحيد البادي منه ، ففسي بقية المجالات كان حيا .

هذا ما كان يقوم به في كل مكان ساحلي ، لكن عندما كان المركب في عرض البحر ، تقاسم اتباعه طعامهم معه ، وقاموا على خدمته واولوه عنايتهم ، حتى محطة جديدة حيث تتجدد التظاهرة والمناحة ثانية مع الموت المزيف ، وحتى لا يبدو الجسد في حالة شاذة من عدم التفسخ وظهور النتن قاموا بخنق - او قطع عنق - احد الطيور ، ووضعوه معه في التابوت ، فمع حلول اليوم الرابع او الخامس على الاكثر كان نتن الجيفة والروائح الكريهة واضح لكل انسان يستطيع الشم (٧٨) ، و ظن هؤلاء الذين خدعوا بالمشهد الخارجي ، ان الرائحة المموجة صادرة عن جسد بوهوموند ، لكن بوهوموند نفسه

استمد مزيدا من الغبطة اكثر من اي انسان ممن ساءهم ما اصابه - كما تصوروا - من سوء الحظ .

وبالنسبة لي انني لتعتريني الدهشة ويتولاني العجب ، كيف تحمل بوهيموند مثل هذا الحصار والتضييق على نفسه ، وكيف ظل بين الاحياء ، مع انه حمل الى جانبه رفيقه الميت ، لكن هذا علمني كيف يمكن ان تكتشف جميع البرابرة ، فهم ما ان يقررون صنع امر من الامور ، لا يوجد شيء مهما بلغت درجة تعويقه لا يمكنهم تحمله ، فهم عندما يصرون على قضية من القضايا يقدمون على تنفيذها مهما كان نوع المعاناة .

لم يكن هذا المخلوق بوهيموند ميتا بعد - كان ميتا فقط بالتظاهر - ومع هذا لم يتردد في العيش مع جسد ميت ، ان وحشية بوهيموند لاسابق لها في عصرنا ولا نظير ، وكان باعثها فقط اسقاط الامبراطورية البيزنطية ، فما من بربري او اغريقي اخترع من قبل مثل هذه الخطة ضد اعدائه ولا حتى بالخيال ، ولا يمكن لاي انسان في ايماننا ان يرى ذلك ممكنا ثانية ، وعندما وصل الى كورفو شعر كأنه لجأ الى قمة جبل مانع ، او ان الجزيرة هي ملجأ له حصين ، وانه تحرر الان من كل خطر ، فقام من موته المزعوم ، وغادر النعش حيث كان جسده ممددا ، فتمتع بنور الشمس تماما ، وتندشق الهواء النظيف ، وتمشى حول مدينة كورفو ، وعندما رأى اهل المدينة يرتدي ثيابا بربرية غريبة ، سألوه عن نسبه وعن وضعه واسمه ، ومن اين جاء والى اين هو ذاهب ؟ وعاملهم بوهيموند بترفع ، وطلب مقابلة والي المدينة ، وكان رجلا اسمه الكسيوس ، جاء بالاصل من بند ارمينية ، وعندما التقى وجها لوجه مع بوهيموند بدا الاخير متعجرفا في مسلكه ومظهره ، وتحدث برعونة بلهجة بربرية صرفة ، وامر ان يرسل الرسالة التالية الى الامبراطور حيث قال : « اليك ، انا بوهيموند ، الابن الشهير لروبرت ، ابعث بهذا الرسالة : لقد علمك الماضي وعلم امبراطوريتك كم هي مخيفة شجاعتي وعداوتي ، فعندما يرجع السعد الي ، فان الرب على ما اقول شهيد : انني لن

اتوقف عن الانتقام لكل الشرور التي لحقت بي في الماضي ، فمنذ ان استوليت على انطاكية ، اثناء زحفى في الاراضي البيزنطية ، استعبدت سورية كلها برمحي ، لكن جميع ما لحقني من شرور ، ونزل بي من نوازل كان بفعلك وفعل جيشك ، امالي كلها تبذرت واحدة تلو الاخرى ، لقد خضت غمار الاف الانتكاسات والاف الحروب القاسية ، لكن الوضع اختلف الان ، اريدك ان تعرف انه مع اني كنت ميتا قد عدت الى الحياة ثانية ، ونجوت من قبضتك على شكل رجل ميت ، ونجوت من كل عين وكل يد وكل خطة ، وانا الان حي ، انني اتحرك وأتنفس الهواء ، ومن جزيرة كورفو ابعث اليك يا صاحب الجلالة اخبار عدوانية ومكروهة ، لن يسرك قراءتها ، لقد سلمت مدينة انطاكية الى ابن اختي تانكرد ، وتركته هناك عدوا كفتنا للرد على قادة عساكرك اما أنا نفسي فسأذهب الى بلادي فأنا

النسبة لك

ولاصدقائك بين الاموات أما بالنسبة لي ولأصدقائي فواضح انني رجل حي أتأمر لوضع نهاية شريرة لك ، وحتى أثير الفوضى في العالم البيزنطي الذي أنت حاكمه ، فأنا الذي كنت حيا غدوت ميتا ، والآن الذي مت ، أنا حي ، واذا ما وصلت الى ايطاليا والقيت ناظري على اللومبارديين ، وجميع اللاتين والجرمان وفرنجيتنا ، وهم جميعا رجال حرب اشاوس ، عندئذ سأقوم بالعديد من المذابح في مدتك ، وسأجعل الدم يسيل في بلدانك حتى أركز رمحي في القسطنطينية ذاتها».

مثل هذا ، هو الغلو الذي تفاخر به البرابرة .

يوميات صاحب اعمال الفرنجة

التبشير بالحملة الصليبية الاولى

« اعمال البشرا التبشيرية - الحملة الجماهيرية - الصليبيون في القسم - طنطونية - جيش بوهيموند وقوات النورمان الايطاليين - الوصول الى نهر الوردار » .

١ - جاء الى الوجود هذا اليوم ، ما كان المسيح يقوله دوما لاتباعه ، ومصداقا لما جاء في الكتاب المقدس : « إن اراد احد ان ياتي ورائي ، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (١) ، مما احدث هياجا عظيما شمل بلاد غالية (فرنسا) ولم يتوان ، كل ذي قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النية في إيمانه بالرب ، عن حمل الصليب والمبادرة لأخذ الطريق نحو القبر المقدس .

وسرعان ما اكتسب اوربان الحبر الرسولي لكرسي روما الى جانبه اهالي البلدان القائمة فيما وراء الجبل (٢) ، من جميع المطارنة والاساقفة والشمامسة والرهبان ، وقام يخطب في القوم ويعظهم بمواعظ ثمينة موضحة انه لايجوز لكل رجل يسعى في خلاص روحه ان يتوانى عن سلوك طريق الرب بكل خشوع ، وان احتاج الى المال فالعناية الربانية ستسعه ، واضاف الحبر الرسولي في بيانه قائلا : « ايها الاخوان ، عليكم ان تتحملوا الكثير من المشقة والفقر والعذاب ، من اجل اسم المسيح ، وتعانوا العري والاضطهاد والمذلة والمرض والجوع والعطش ، وما شاكل هذا من صنوف الشرور ، كما قال الرب لحواريه : « سأريكم كم ينبغي ان تتألموا من اجل اسمي » (٣) وقوله : « اني انا اعطيكم فما وحكمة لايقدر جميع معانديكم ان يقاوموها او يناقضوها (٤) » او كما قال ايضا : « انكم ستأخذون ميراثا عظيما (٥) » .

ولم تلبث هذه الدعوة ان انتشرت رويدا رويدا في جميع بلاد غالية واعمالها ، وما ان سمع الفرنجة عظته هذه حتى بادروا بكل سرعة الى وضع علامة الصليب كل منهم على كتفه الايمن ، مرددين جميعا رغبتهم في السير على خطى المسيح وفي اقتفاء اثاره ، وكلهم امل ان تمكنهم تلك الخطى من استعادة السلطة من البرابرة (المسلمين) .

وسرعان ما غادرت حشود الفرنجة بيوتهم وديارهم وانقسموا الى ثلاثة فرق ، حيث دخل فريق منهم فيه بطرس الناسك والكونت بلدوين دي موزس ، وسار هؤلاء الفرسان الشجعان وغيرهم كثير - ممن لا يعرفه - على الطريق الذي سلكه من قبل شارلمان - ملك غالية الكبير - الى القسطنطينية (٦) .

٢ - وكان بطرس الناسك اول المتوجهين نحو القسطنطينية ، وقد وصل اليها « يوم ٣٠ تموز لسنة ١٠٩٦ م » وبرفقته الجزء الاعظم من جماعة الالمان ، وقد انضم اليه هناك اللمبارديون ، وكثير ممن سواهم وقام الامبراطور بتزويدهم بما امكن من المؤن ، وقال لهم : « لاتعبروا البسفور قبل ان تلحق بكم بقية العساكر المسيحية ، لانكم لستم من القوة والتعداد مما يمكنكم من محاربة التركمان » .

وسلك المسيحيون اثناء اقامتهم سلوكا شاذنا ، حيث هدموا القصور ، واشعلوا فيها النيران ، واقتلعوا الرصاص من اسقفة الكنائس وباعوه للاغريق ، مما اغضب الامبراطور شديد الغضب ، فامر وهو في حاله هذا ، بابعادهم وعبورهم البوسفور .

ولم يتوقف الفرنجة - بعد كل ما اقترفوه - عن ارتكاب كافة صنوف الجرائم مثل اضرار النيران في البيوت والكنائس وتخريبهم اياها ، ووصلوا اخيرا الى نيقوميديا ، حيث تميز اللمبارديون والالمان عن الفرنجة وابتعدوا عنهم ، وفعل الالمان كذلك ، وولجوا الى بلاد اسية الصغرى ، وزحفوا لمدة اربعة ايام يريدون نيقية ،

وعبروا بجانب قلعة خاوية اسمها اكرزغوردوس ، فاستولوا عليها ،
وقد عثروا في داخلها على كميات كبيرة من المؤن كالقمح والخمور
واللحوم وشتى اصناف الاطعمة .

ولما عرف التركمان بخبر استيلاء المسيحيين على هذه القلعة
هبوا لاستردادها ، وكان امامها بئر ، وعند اقدامها نبع ماء جار ،
فانصب رينالد الى جانبه شركا للتركمان ، ووصل التركمان يوم
القديس ميخائيل (٧) حيث وجدوا رينالد واصحابه ، فانقضوا
عليهم وابدوا قتلا واسرا عددا كبيرا منهم ، ولاذ البااقون بالفرار
الى داخل القلعة واعتصموا بها ، وشرع التركمان في حصارهم
فيها ، ومنعوا عنها الماء ، فاشتد العطش برجالنا شدة دفعتهم الى
فصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمانها ، والقى الاخرون
الخرق معلقة بالشصوص في الكنف ، وعصروها في افواههم ، وكان
احدهم يبول في يد رفيقه ، ثم يشرب الاثنان ، وحفر البعض منهم
حفرا في الارض الرطبة واضطجعوا فيها ، وهالوا التراب على
صدورهم ، وهكذا وصلت شدة عطشهم الى هذا الحد ، وقد عمل
الاساقفة والكهنة على شد عزائم رجالنا ، واخذوا يحضونهم على
الصبر .

واستمرت هذه المحنة ثمانية ايام متوالية ، ثم عقد مقدم الالمان
مع التركمان اتفقا وعدهم فيه تسليم اصحابه ، ثم تظاهر بالخروج
الى القتال ، وهرب اليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فلحقوا به ، وواجه
حذفه كل من رفض التذكر للرب ، اما الذين استمروا على قيد الحياة
فقد وقعوا في الاسر وتقاسمهم الاعداء كاققسام السائمة ، واتخذ
التركمان من بعضهم هدفا سدودا نحوه سهامهم ، ثم عادوا يتهادون
بعضهم ، ويبيعون بعضهم الاخر بيع الدواب ، وساق فريق من
الاعداء الغنيمة الى مساكنهم ، واخذ فريق حصته الى
خراسان (٨) وانطاكية وحلب ، وذهب كل بها الى حيث كان يقيم .

لقد كان هذا هو نيل الشهادة الكريمة التي حظي بها الرجال
الاولئ على طريق تمجيد اسم الرب يسوع .

ولما علم التركمان بعد هذا بوجود بطرس الناسك ، وجوتيه سانز افوار (٩) ومن برفقتهما في هرسك فيما وراء نيقية زحفوا ضدهم ، وكلهم حماس وامل في القضاء عليهم ، كما قضوا على رفاقهم من قبل ، والتقوا اثناء زحفهم بجوتيه ومعهم جماعته ، فانقضوا عليهم وابادوهم (١٠) ، اما بطرس الناسك فقد عاد الى القسطنطينية (١١) ، بعدما عجز عن تنظيم اتباعه من العساكر الذين تولاهم الياس فاضحوا عازفين عنه ، منصرفين عن خطه ، وقد انعطف عليهم التركمان فابادوا منهم عددا كبيرا ، ذلك انهم صادفوا بعضا منهم مستغرقا في نومه ، وبعضهم الاخر اعزلا مجردا من كل شيء فابادوهم جميعا ، وكان هناك كاهن يقوم بمراسيم الوعظ فقتلوه فنال الشهادة وهو على المذبح ، وقد هرب الذين كتب لهم النجاة الى

هرسك ، كما القى بعضهم انفسهم في البحر والتجأ سواهم الى الاحراج في الجبال وتخفوا فيها ، وانطلق التركمان في اثارهم ، وجمعوا الحطب لاحراقهم هم والمدينة معا ، لكن المسيحيين الذين استولوا على المدينة القوا النار على الحطب ، واشتعلت النيران واتجه اللهب نحو التركمان فاحرق بعضا منهم ، وحفظ الرب رجالنا فلم تمتد اليهم تلك النيران ، لكن على الرغم من ذلك تمكن التركمان اخيرا من اسرهم احياء وتقاسموهم فيما بينهم كما سبق لهم ان فعلوا مع سلفهم ، وشنقوهم في كل ناحية ، وساقوا بعضهم الى خراسان ، ومضوا ببعضهم الاخر الى ايران .

لقد جرت كل الاحداث في شهر تشرين اول ، ولم يكتم الامبراطور (الكسيوس) فرحته الكبرى ، حين وصله خبر تمزيق التركمان لصفوف رجالنا ، واصدر تعليماته بعبورهم البوسفور بعدما جردهم من كل الاسلحة التي كانوا يحملونها .

٣ - ودخل الفريق الثاني اراضي الصرب والكروات مع كل من ريموند الصنجيلي واسقف بوي (١٢) ، وسار الفريق الثالث عبر الطريق القديم الذي كان يقود الى روما ، وكان في صفوف هذا

الفريق بوهوموند (ابن روبرت جسكاردي) ورتشارد البسالرني (١٣) ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت النورماندي (١٤) وهيوج الكبير (١٥) ، وايفراددي بواسيه ، واكادي مونتيريل وايزور موزون ، وغيرهم كثير ، وقد مضى بعض منهم الى ميناء برنيزي ، وبعضهم الآخر الى ميناء باري ، وغيرهم الى اوترانتو .

وابحر هيوج الكبير ووليم بن المركيز (اخو تانكرد) من باري ، والقياس مراسيهما في احواز دورازو ، التي ما كاد عاملها يعلم بخبر ارسائهما حتى حاك في نفسه خطة دنيئة ضدهما ، حيث القى القبض عليهما وقام بترحيلهما الى القسطنطينية (١٦) ، ليمثلا امام الامبراطور ، وليقسما له يمين الولاة .

ووصل اخيرا الكونت غودفري الى القسطنطينية ، وقد كان مقدما على جميع الامراء ، ويقود جيشا كبيرا ، ووصل اليها قبل موعد ميلاد الرب بيومين ، واقام معسكرا في خارج المدينة ، حتى سمح له الامبراطور المتجبر في الاقامة في احدى الضواحي ، واعتاد الكونت على الاقامة حيث حدد له ، وكان يبعث برجاله كل يوم - في هدوء - لجلب الاعلاف وكل ما تحتاجه الخيول ، وخيل لرجاله انه بامكانهم الذهاب آمنين متى ارادوا واني شاءوا ، لكن الامبراطور الكسيوس الغدار امر من كان لديه من العساكر والمرتزقة بمهاجمتهم والايقاع بهم انى صادفوه (١٧) ، ولما علم بلدوين - اخو غودفري - بهذا كمن لعساكر الامبراطور ، وانزل بهم ضربة قاسية ، وهم في طريقهم للقضاء على رجاله ، واستبسل في قتله لهم ، ومنحه الرب التأييد ، فانصر عليهم واسر منهم ستين رجلا ، غير من قتلهم ، وجاء بهؤلاء الى اخيه غودفري .

واستطار الامبراطور غضبا حينما وصل اليه نبأ هذه الاحداث ، ولما رآه غودفري ساخطا متجهما نحوه ، ترك تلك الضاحية ومعه اتباعه ، وعسكر خارج المدينة ، ومع حلول الظلام اصدر الامبراطور الشقي اوامره الى قواته بالقيام بهجوم على غودفري والمسيحيين

الذين معه ، لكن غودفري تصدى لهم على راس عساكر المسيح .
وانتصر عليهم ، وقتل منهم سبعة رجال وطارد الباقين حتى بوابة
المدينة ، ثم عاد الى معسكره ولزمه مدة خمسة ايام استجم بها ، ثم
عقد صلحا مع الامبراطور ، الذي حثه على عبور ذراع القديس
جورج (البوسفور) وسمح له بالتزود بالعتاد حسب المستطاع ،
كما اعطاه بعض المال لينفقه صدقة على الفقراء .

٤ - اما بوهوموند المنصور ، فقد كان مذشغلا اذناك بحصار
جسر سكافارد في امالفي ، ولدى معرفته بوصول جماعة مسيحية
كبيرة تفوق العد والحصر ، وعازمة على المضى نحو القبر المقدس ،
وانها تعهدت بشمن الحرب ضد الكفرة ، اهتم بوهوموند بالامر ،
واستفسر عن اسلحة هذه الجماعة وعن شعارها المسيحي الذي
تحمله في الطريق ، وعن هتافها في المعركة ، فقبل له : انهم
يستخدمون اسلحة مناسبة للحرب ، ويحملون شارة صليب المسيح
على احد الكتفين ، او على الظهر ، وانهم يرددون بصوت واحدا
شعارا نصح : « انها ارادة الرب - انها ارادة الرب - انها ارادة
الرب » ، وامتلا بوهوموند - في الحال - بالروح القدس ، وامر
بتقطيع رداءه الثمين الذي كان يرتديه الى قطع صغيرة يصنع منها
صلباننا (١٨) .

وانطلق الجزء الاكبر من الفرسان الذين كانوا يحاصرون
المدينة ، نحو بوهوموند وانضموا اليه ، حتى ان الامير « روجار »
كاد ان يبقى وحيدا ، لهذا اقلع عن متابعة الحصار ، وعاد الى
صقلية مغتما وشاكيا لضياح جيشه .

وعندما رجع الامير بوهوموند الى ممتلكاته (١٩) ، استعد غاية
الامكان لاخذ الطريق نحو القبر المقدس ، وبعد لأي ركب البحر
يصحبه جيشه وكل من تانكرد بن المركيز ، والامير رتشارد ، واخوه
رينول ، وروبرت انز ، وهرمان دي كاني ، وروبرت سورديفال ،
وروبرت بن توستاني ، وهذفري بن رودولف ، ورتشارد بن الكونت

رينوف ، وكونت رسيولو ، واخوته : بويل دي شارتر ، واوبريه دي نيانو ، وهذفري دي مونت سسكياپوزا ، وركب الجميع البحر ، وعبروه على حساب بوهموند ، والقوا مراسيهم في بلغاريا حيث وجدوا كميات وافرة من الحبوب والخمور وجميع انواع المؤن .

وساروا حتى نزلوا في وادي ادرنة ، واقاموا ينتظرون وصول بقية الجيش ، واخذ بوهموند في تلك الاثناء في التشاور مع جيشه واثارة همم رجاله وحضهم على السلوك الحسن والتواضع والكف عن النهب وايداء سكان البلاد المسيحيين وامرهم الا ياخذوا من الاشياء مايزيد على حاجتهم المعاشية .

وحل موعد الرحيل ، فانطلقنا (٢٠) نسير من منطقة الى منطقة ومن مدينة الى مدينة ، ومن قلعة الى قلعة ، حتى وصلنا الى كاستوريا حيث احتفلنا احتفالا بهيجا بميلاد السيد المسيح ، ومكثنا بها عدة ايام نبحث عما نتزود به من مؤن ، لكن سكان المدينة رفضوا تزويدنا بما طلبناه لشدة خوفهم منا ، فهم لم يعتبرونا بمثابة حجاج ، بل نظروا الينا على اننا جماعة طامعة في تخريب اراضيهم والفتك بهم ، ولقد استولينا على الخيول والثيران والحمير ، لابل على كل ماصدفناه او عثرنا عليه في طريقنا ، ولما غادرنا كاستوريا دخلنا الى اقليم بيلاغوني حيث صدفنا بلدة من بلدان الهرطقة فهاجمناها من جميع اطرافها وسرعان ما استولينا عليها ، فاضرنا النيران واحرقناها بمن فيها من السكان ودمرناها تدميرا .

ثم وصلنا الى نهر الوردار ، وتابع من هناك الامير بوهموند سيره مع فئة من عساكره ، وذلك لتمييز الكونت روستولو عنه ، واقامته هناك مع اخوته ، لكن الجيش الامبراطوري جاء فهاجم هذا الكونت كما حارب اخوته وجميع من كانوا برفقتهم ، وعندما سمع تانكرد بهذا ارتد على اعقابه ، وعبر النهر سباحة و انضم الى اخوته ، و لحق به الفان من العساكر ، و حذو حذوه في عبورهم النهر ، حيث وجدوا العساكر الامبراطورية والمرتزة يحاربون ضد رجالنا ،

فباغتوهم ، واستبسلوا في هجومهم عليهم حتى هزموهم ، ثم اسروا عددا منهم واقتادوهم مشدودي الوثاق الى حضرة الامير بوهموند فسألهم قائلا : ما الذي دفعكم ايها التعساء على قتل جندي الذين هم جند المسيح ، مع انني لم اناجز امبراطوريتكم العداء قط ؟ (٢١) فأجابوه : الحق نقول ، لقد جرى استنجاننا لحساب الامبراطور ، وكان علينا ان ننفذ كل ما امرنا به ، فسمح بوهموند لهم بالانصراف دون ان يقتص من واحد منهم وقد جرت هذه الواقعة في اليوم الرابع من اسبوع صوم الاربعين . (٢٢) . مبارك هو الرب دائما . امين .